سلسلة
عندما نطق السُّراة

طُوفَانُ نُوحٍ

بَيْنَ الحقيقة والأوهام

قسم الدراسات والبحوث
جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

طُوفَانُ نُوحٍ

بَيْنَ الحقيقَةِ والأَوهامِ



الكتاب: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام

سلسلة: عندما نطق السراة

تأليف: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

Tel: (+973) 17273787

Fax: (+973) 17274787

P.O.BOX 10493

Manama-Kingdom of Bahrain

www.tajdeed.org

E-mail: tajdeed@tajdeed.org

دار كيوان

للطباعة والنشر والتوزيع

الحلبوني – دمشق – سورية – تلفاكس: ٢٢١٧٢٤٠ ١١ ٠٠٩٦٣

E- Mail: Kiwanhouse@mail.sy

سلسلة عندما نطق السراة

طُوفَانُ نُوحٍ

بَيْنَ الحقيقَةِ والأوهامِ

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

ملاحظة هامة

تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في سبتمبر ٢٠٠٥، ووزعت نسخ إلكترونية تجريبية منه عبر موقع جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في مملكة البحرين عبر الرابط **www.tajdeed.org**

المقدمة

(**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ...**)(النمل:٦٩)، تكرر هذا النداء الإلهي اثني عشرة مرة في الكتاب الخاتم ليحثنا على السير في الأرض، لا بمعنى المشي عليها والتجوال فيها لطلب البيّنات والدلائل الجيولوجية والآثارية فحسب، بل بمعنى السياحة في الأحداث التاريخية وقراءتها بهدف دراستها وتحليلها وفهمها، ولننظر كيف السير في الأرض للتعرف على نواميس الكون وقوانينه لتفادي التصادم معها ولأجل استخدامها وتحويل تيارها لخدمتنا. السير في الأرض بمعنى قراءة الماضي لفهم الحاضر والتأسيس للمستقبل لعلمنا أن ليس من فوضى في الكون بل كلّها سنن فاعلة ونواميس ثابتة ومحاولة الإفلات منها فاشلة بل ميئوسٌ من نتائجها (**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**)(الأحزاب:٦٢). نقرأ في تراث الآباء لإعادة قراءة تاريخ الإنسانية منذ بدايته، نقرأه لنصل إلى جذورنا الضاربة في عمق التاريخ لكي نساهم في استمرار الشعلة التي حملها الأوّلون لتحريك الطاقات المتجددة في إنسانية الإنسان، نقرأه لنمحّصه ولننظر كيف.

يصنّف المؤرّخون التاريخ إلى صنفين: الأول: ويسمّى التاريخ الخاص، والذي يُدَوّن عادة بما يتوافق ورغبات السلطة القائمة أو ما تتطلّبه الأوضاع الخاصة بمن ينتمي إليهم هذا المؤرخ أو ذاك، وقد أدّى هذا النوع من كتابة التاريخ إلى تحريف الحقائق أو تزييفها بحيث أصبحت قواعد ثابتة لمن كُتب لهم أو أُملي عليهم حتى صار هذا التاريخ حائلاً دون رؤية الحقائق كما هي، والثاني: ويسمّى التاريخ العام، والذي يتحدّث عن "الحقائق" بذاتها ويكشف النقاب عمّا استتر من الخفايا الواقعية للأحداث. هذا النوع من التاريخ يُعنى بالبحث في الأحداث الماضية بهدف الاستفادة من تجارب الماضي بعد تحليلها والتعرّف على الأخطاء لفرزها وتجاوزها، فيصبح

هذا التاريخ سجلاً إنسانياً تستفيد منه المجتمعات الإنسانية كافة. إن دراسة للتاريخ باتّباع هذا النهج نجد فيه دور العقل ماثلاً بشموخ، مهيمناً على طغيان الهوى، متعالياً عن الانحصار في الذات، متحرّراً من كل خوف، شهيداً على الحق، وناظراً إلى الأفق الأوسع حيث الإنسانية جمعاء، هادفاً لبلوغ مستوى من الوعي يساعد الإنسان على معرفة الحقيقة ولو اختبأت تحت ركام من الباطل والوهم أو الكذب والتزوير. دراسة التاريخ بهذا المستوى هو ما نرنو إليه، يسبقها قراءة متأنّية للتراث الذي بين أيدينا وتمحيصه بعد محاولة فهمه وتحليله، ويتلوها إعادة كتابة التاريخ بما نصل إليه من حقائق لا بما يُملى علينا.

نعلم أن في هذا الدرب عقباتٍ صعاباً لأن التأريخ الخاص الذي دوّن وعُلّم لأبناء الأمة جيلاً بعد جيل لن يكون تصحيحه أو محاولة إحلال غيره محلّه عملاً يسيراً، وإنما بحاجة إلى جهد مضاعف، بين هدم وبناء، وبحاجة إلى عقل منفتح قادر على إعادة النظر في بعض معتقداته التي أُثبت فسادها أو عدم صحّتها، لكي يصلحها ويسمو بنفسه إلى المزيد من المعرفة والوعي. هذا بالنسبة للتاريخ الخاص الذي كُتب لا بسوء طويّة أو قصد وإنما بتمازج الأيديولوجيا والهوى وطغيانهما على الواقع والحقائق أحياناً، وبشيء من الجهل والغفلة أحياناً أخرى، فكيف بالتاريخ الذي حُرّف وزوّر بقصدٍ ونية سوء، وبطريقة مدروسة ترمي لتحقيق أهداف معيّنة، بحيث أصبح هذا التاريخ المزَوَّر واقعاً معاشاً ينبغي على من يريد التشكيك في صحته أن يتسلّح بالكثير من العلوم ويجهد نفسه بالبحث والاستقصاء ليتمكّن من فرز الحقائق من الأوهام والخروج بنتيجة يدعمها رأي العلم والمنطق ويُصدّقها الواقع.

إن مهمة قراءة التاريخ ودراسته بتجرّد مهمة ليست باليسيرة لأن من سيأخذ على عاتقه القيام بهذا الدور عليه أن يكون على استعداد تام أن يرى الحقائق كما هي وإن جاءت على غير ما يعتقد أو بخلاف ما يتمنّى، فتلك إذاً مهمة بحاجة إلى شجاعتين، شجاعة قبول الحقائق التي توصّل إليها إذا جاءت على غير ما يروم والتي قد تنال من بعض ما أيقن بصحّته على مدى سنين طويلة، وشجاعة إعلان هذه الحقائق وإن كانت مغايرة لما يشتهيه الآخرون، وهنا قد يضطر- لأجل تصحيح هذا الخطأ

التاريخي الشائع أو كشف أسباب الوقوع فيه – أن يصطدم بمن يشترك معه في المعتقد ومن يخالفه على حدّ سواء.

فلإيماننا بأهمية قراءة التاريخ قراءة متأنية متجرّدة ، ولعلمنا بأن فهم الحاضر لا يكون إلاّ في ضوء قراءة نزيهة للماضي وتحليله وفهمه من مصادره المختلفة، وليقيننا بأن الحاضر المعوَج لن يستقيم إلاّ بمعرفة أسباب الاعوجاج وتحديداً النقطة التي بدأ منها وكيف تطوّر، سنتناول في هذا البحث حادثة طوفان نوح (ع) أنموذجاً لقراءة تحليلية في التاريخ المدوّن والمتمثّل في تراث الأمة بمصادره المختلفة (الأساطير، مدوَنة التوراة، القرآن الكريم) بعقد مقارنة بين ما جاء في هذه المصادر الثلاثة للتعرّف على نقاط الالتقاء والتشابه بينها، ونقاط الافتراق والاختلاف، ومن ثَمّ التوصّل إلى حقيقة تفاصيل هذه الحادثة فنثبّت ما اتّفقت عليه المصادر ودعّمته الأدلة المنطقية والبراهين العلمية، ونناقش ما اختلفت عليه وذلك بتعريضها للنقد بهدف غربلتها فنُبقي على ما يصمد منها ونكشف زيغ أو زيف ما يسقط منها .

في قراءتنا لحادثة طوفان نوح (ع) من التراث ذُهلنا لما توصّلنا إليه من نتائج تتعارض مع أكثر ما قيل بشأنه، من عالميته، وكيفية حدوثه، وأسبابه، ومنافاة كل ذلك للشواهد الآثارية والأدلة العلمية والمنطقية ورغم ذلك فقد وجدنا أن الكثير من علماء اليهود والمسيحيين والمسلمين فضلاً عن عامّة الناس اعتقدوا بعالمية الطوفان، وبعد مزيد من الاستقصاء والبحث تمكّنا من التعرّف على أسباب هيمنة هذا الاعتقاد رغم عدم صحتّه فلاحت يد التزوير التي طالت حادثة الطوفان في مدوّنات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفرّدت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر وبالتالي استطعنا أن نكشف الأسباب التي لأجلها وُظّفت بعض تفاصيل هذه الحادثة والأغراض التي من أجلها سُخّرت. لقد استُغلّت حادثة طوفان نوح (ع) والإضافة التي تفرّدت بها مدوّنات التوراة من قبل اليهود ليسوّغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين والاستيلاء على ممتلكاتهم، وذلك باتّهام الأنبياء (ع) بارتكابها أو بادّعاء أنها بإيعاز منهم، فاتّهموا نوحاً (ع) بالسكر والتعرّي ولعن كنعان ومباركة سام ثمّ أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكراً عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض. من

هنا تأتي أهمية هذا البحث في دحض هذه النظرية ونسفها من جذورها بعد أن نثبت أن الطوفان لم يهلك البشرية كلها وبالتالي فالسلالات لا تعود إلى أبناء نوح (ع) فقط ولنؤكّد على رفض فكرة تمييز الناس على أسس عرقية لتعود الأمّة إلى حقيقة (**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**)(الأنبياء: ٩٢)، وحقيقة "كلّكم لآدم". إنّ سلاح معاداة السامية الذي يطبق حصاره على مثقفي الغرب قبل العرب، خرج مؤخرا عن حدود الدول الغربية بسنّ قانون في الولايات المتحدة الأمريكية[1] (!) يتعقّب ويوجّه إصبع الاتّهام إلى كلّ من تُسوّل له نفسه انتقاد الحركة الصهيونية بأي شكل من أشكال الانتقاد سواء بكتابة مقال، أو نشر كتاب، أو إخراج فيلم أو مسلسل تلفزيوني أو مسرحية أو ما إلى ذلك (!) بدعوى أن اليهود هم الساميّون. إنّ أحد الفوائد العلمية لهذا البحث إلى جانب الكشف عن خدعة "النظرية السامية" هو معرفة حجم هيمنة الإسرائيليات على فهمنا للقرآن الكريم وبالتالي الدعوة للرجوع إلى القرآن كمرجع أوّلي للمعرفة، وقراءته قراءة ثانية محكّمين نظامه الدقيق ومطبّقين قواعده ومقارنين بينه وبين المصادر الأخرى من تراث الأمة ومؤكّدين على وحدة هذا التراث في محاولة منّا لغربلته وتنقيته ممّا علق به من تزوير مدروس وموروثات مشوّشة وأحكام مسبّقة.

في قراءتنا لهذه الحادثة من مصادرها الثلاثة بحثنا عن إجابة لسؤال محوري: هل غمر الطوفان الكرة الأرضية وأفنى البشرية كلّها فلم يبقَ إلاّ نوح وزوجته وأبناؤه الثلاثة ونساؤهم؟. وهذا السؤال قادنا إلى مجموعة أخرى من الأسئلة التي كان لابدّ لنا من الإجابة عليها مثل: أين حدث الطوفان؟ وكيف حدث؟ وما هي أسبابه؟ وغير ذلك لنكوّن صورة واضحة عن هذا الحدث العظيم الذي شغل رجال الدين والعلماء والمفكرين من أهل الكتاب والمسلمين على مدى عقود طويلة وذلك بعد الاطّلاع على آراء الباحثين والمفسّرين في فهم هذه النصوص وتفسيرها ومناقشة ما لا يتّفق مع الآراء العلمية الرصينة وقبول ما نجده موافقاً للعلم والمنطق أو مستخلصين نتيجة مغايرة نجدها أقرب إلى الصواب. إنّنا نأمل أن تكون دراسة هذه الحادثة التاريخية

[1]- قانون "تعقب الأعمال المعادية للسامية عالميًّا" أقره الكونجرس الأمريكي يوم (٢٠٠٤/١٠/١٠) وأقره الرئيس جورج بوش يوم (٢٠٠٤/١٠/١٦). للاطّلاع على بنود هذا القانون أنظر:
http://www.islamonline.net/Arabic/politics/2004/11/law.doc

أنموذجاً لدراسة أكثر شمولية واتساعاً لغربلة التراث ممّا حُمّل من أفهام وتفسيرات وعقائد باطلة لعلمنا بوجود الإسرائيليات التي اخترقت تراثنا وأثّرت كثيراً على فهمنا للتاريخ وتفسيرنا لأحداثه بل وفهمنا وتفسيرنا للقرآن والذي نعتقد أنّه كان أحد أسباب الغفلة ونقطة اعوجاج لابدّ من تداركها وتصحيحها ولن يكون ذلك بتناول حادثة واحدة فقط بالدراسة والتحليل بل باستقصاء ما يتوفّر لنا من حالات مشابهة بحيث نخلص إلى نتائج يمكننا الاعتماد عليها والركون إلى وثاقتها وصحّتها لنخط نهجاً جديداً في التعامل مع هذا التراث الثري بوعي وعلم.

ذكرنا أن هذا البحث سيكون قراءة لحادثة الطوفان من تراث الأمة المتمثل في الأسطورة ومدوّنات التوراة والقرآن الكريم لافتقار المكتبة الإسلامية إلى أمثال هذه الدراسة فبالرغم من وجود الكثير من الدراسات والمؤلّفات التي تعقد المقارنة بين حادثة الطوفان في المراجع المسمارية كالسومرية والبابلية وبين حادثة الطوفان في التوراة إلاّ أن هذه الدراسات تغفل أو تستبعد القرآن الكريم كمرجع من المراجع التي تناولت الحادثة[١]، فبعد أن نستعرض مقاطع من الحادثة من مصادرها الثلاثة سنعقد مقارنة بينها في بعض التفاصيل ذات العلاقة بمحاور هذا البحث من قبيل المساحة التي شملتها مياه الطوفان، الناجون والمغرَقون منه، كيفية حدوثه، موقعه، أسبابه وذلك تأكيداً على وحدة تراث الأمّة وتمهيداً لمعرفة الاختلافات الجوهرية بينها للتعرّف على أسباب تلك الاختلافات وما ترتّب عليها.

لقد خصّصنا الفصل الأول لقراءة الحادثة من المصادر الثلاثة، ثم سلّطنا الضوء على ما تفرّدت به مدوّنات التوراة من إضافة في نهاية الحادثة ثم نقضنا هذه الإضافة بأدلّة من التوراة والتاريخ والواقع وبيّنا أهدافه والنتائج التي ترتّبت عليه. وبما أننا اكتشفنا أن أيّاً من المصادر الثلاثة لم تصرّح بعالمية الطوفان ورغم ذلك ساد الاعتقاد في معظم أوساط الأمة على اختلاف مذاهبها بعالميّته، وجدنا أنه من

---

[١] – على سبيل المثال كتاب "الطوفان في المراجع السماوية" للدكتور فاضل عبد الواحد علي، يتناول حادثة الطوفان في جميع المراجع المسمارية والتوراة ولكنه لا يأتي على أي ذكر للقرآن الكريم بصفته أحد الكتب السماوية التي ذكرت الحادثة.

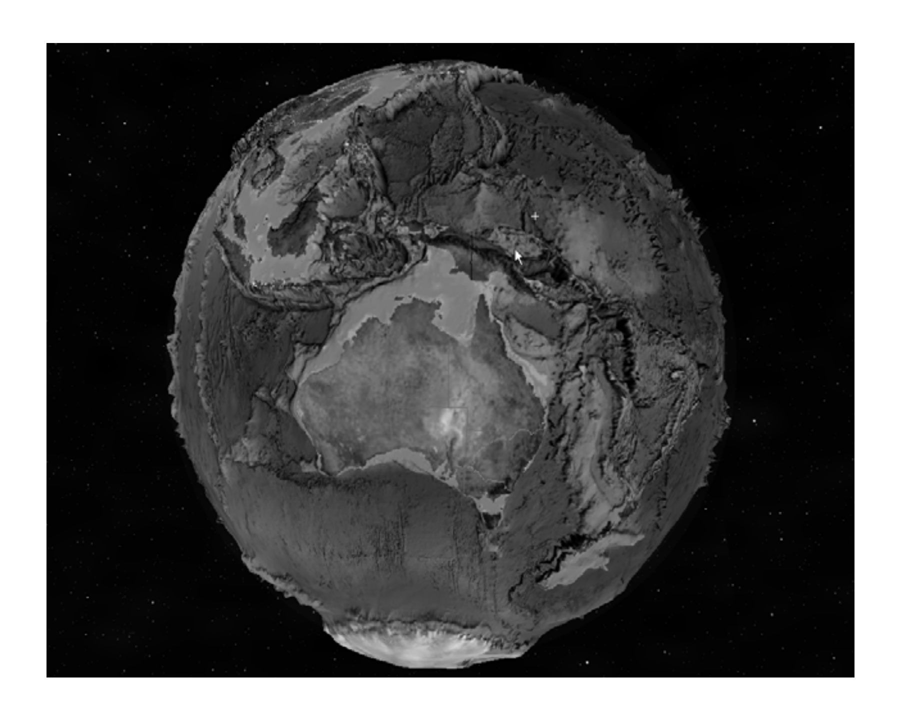
الضـروري الرجـوع إلى كتـاب الله للتعـرّف مـن خلالـه علـى تفاصـيل الحادثـة وذلـك لكشف اللبس الذي اكتنفها بالاحتكام إلى مصدر متّفق على مرجعيته لدى أفراد الأمة ومثقّفيهـا وعلمائهـا، وتمهيـداً لمناقشـة آراء مفسّـري القـرآن الكـريم ومفسّـري التـوراة الذي أثبتوا عالميته رغم عدم تصريح النصوص بذلك وهـذا مـا سـنتناوله في الفصـل الثالث.

هذا الحدث — الأسطورة - ليس من صنع البشر، بل من الطبيعة والسماء، وكان يُنظر إليه كحدث عالمي لكثرة انتشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها كثيراً من الحادثة الحقيقية التي حدثت قبل حوالي خمسة آلاف عام كما في أساطير السومريّين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كمـا في أسـاطير الإغريـق والهنـود، ولكـن ممـا لا شـك فيـه هـو أنّ معظـم الحضـارات القديمة قد اشتملت على قصة طوفان عظيم، امتاز بطل هذا الطوفان في أكثرها بأنـه إنسـان صـالح أو رمـز يُعبِّـر عـن منقـذ يعلـم مسـبقاً أن طوفانـاً سـيأتي وعليـه أن يستعدّ هـو ومـن معـه بوسـيلة نجـاة تضـمن خلاصـهم. فمـثلاً نقـرأ قصـة طوفـان في الملحمة الشعرية الهندية (مهابهراتا) بطلها يُسمّى (ريشي مانو)[١]، أي النبي، ويعتقد الاستراليّون أن جزيرة سيلان أصبحت أصغر مما كانت عليه في الماضي لأنّ جزءاً كبيراً من الجزيرة ابتلعه الطوفان (وهذا صحيح جغرافيا بسبب ارتفاع منسوب مياه البحار نتيجة لذوبان الجليد الذي تعرّضت له الأرض مع نهاية العصر الجليدي)(انظر الصورة:١)، وتقول أسطورة بورمية أن الحدأة فتحت ثغراً في جمجمة السرطان فغضب وانتفخت البحار والأنهار حتى السماء فوقع الطوفان، وكذلك نقرأ قصص الطوفان في أساطير سكان جزيرة غينيا الجديدة، وفي وسط وشمال أمريكا، وعن الطوفان تتحدث أساطير الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية، وأساطير الإيرلنديين، ولم تخلُ الأساطير الإغريقية من ذكر لأكثر من طوفان، وأمّا أشبهها بطوفان نوح (ع) ما ذُكر في الأساطير السومرية والبابلية لقربها من الجزيرة العربية (المركز) الذي بُثّت

---

[١] - وهي عربية قديمة ريشي أي ريَّس/رئيس، و"مانو" هو المُقدّر الكفيل المدبّر أي الربّ، والإنسان صار "مانو" أيضاً، ومنه اشتُقَّت "مان" الإنجليزية فهو رئيس ربّاني.

منه علوم الأوّلين وانتشرت. فحادثة الطوفان التي سيتناول هذا البحث تفاصيلها حادثة تاريخية عظيمة تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلاً بعد جيل فأصبحت بحق آية للعالمين (لا سيّما مع وجود محاكي لها في بيئاتهم)، وبقيت حيّة في الأذهان وفي ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف في التفاصيل يزداد شيئاً فشيئاً كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان.



صورة بالأقمار الصناعية لقارة استراليا تبيّن تغيّر حجم القارة بعد أن غطّت المياه معظم سواحلها بسبب ارتفاع منسوب المياه مئات الأمتار من أثر ذوبان الجليد في الحقبة الدفيئة

(الصورة:١)

الفصل الأول

الطوفان في التراث

وحدة التراث

إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

(الأنبياء:٩٢)

من يطّلع على الأساطير السومرية والبابلية والآشورية كأسطورة إينوما إيليش التكوينية أو ملحمة جلجامش، أو ملاحم أوغاريت، وما كشفت عنه الحفريات في العراق والشام ومصر وادي النيل من علوم وعقائد الأوّلين في الخلق والموت والحياة ويقارنها ببعض ما جاء في التوراة من قصة التكوين أو خلق الإنسان أو سقوط الإنسان الأول أو الطوفان أو سمات العالم السفلي، وما يماثلها في القرآن الكريم من خلق الكون وأطوار خلق الإنسان واختياره خليفة في الأرض وإهباطه من الجنة بعد ارتكابه الخطيئة الأولى وغيرها يجد تشابهاً كبيراً بينها ويجدها جميعاً تلتقي في الكثير من العلوم الغيبية والقيم والمبادئ الفاضلة، وفي حكمتها وروحانيتها لولا ما أُضيف إليها من أفهام دخيلة وتفسيرات خاطئة أو ما أُدخل عليها من تزوير وتحريف. لو قُيّض لنا رؤية الحبل السّري الذي يربط بين الحقائق الكونية التي سُطّرت في أساطير ومدوّنات ديانات الشرق القديم، وما جاء به الأنبياء والمرسلون من لدن آدم حتى محمد خاتم المرسلين (ص) لفُتح لنا الباب على مصراعيه للتعرّف على وحدة التراث الحضاري لهذه المنطقة (الجزيرة العربية) واستطعنا أن نربط بين منابع ثقافة الأمة المتنوّعة، ووضعنا نهاية للغربة بينها وبين جذورها الممتدة في عمق التاريخ، ورسمنا بداية لتوحيد الأفهام في قضايا معرفية كونية، وقيمية مصيرية لتكون تلك بداية النهاية لوضع حدّ للتلاعب بمقدّرات الأمم والشعوب من قبل المستنفعين من التزوير والتحريف والراقصين على حبل التمييّز العرقي البغيض. فهناك إذاً هدفان من عقد

مقارنة بين المصادر الثلاثة في حادثة طوفان نوح (ع)، الأول: التأكيد على وحدة تراث الأمّة، والثاني: معرفة ما إذا كان الطوفان عالمياً بمعنى أنه أغرق الكرة الأرضية وأهلك كل من عليها، وذلك بالتعرّف على المساحة التي شملتها مياه الطوفان، وتحديد الناجين والمغرقين في الطوفان، ثم نُعرّج بعد ذلك على معرفة أسباب الاختلاف بينها والنتائج التي ترتّبت على ذلك.

قبل أن نقرأ تفاصيل حادثة الطوفان من المصادر الثلاثة نودّ أن نوضّح للقارئ رأينا باختصار في كل مصدر من هذه المصادر وموقفنا منها ومنهجنا في التعامل معها لكي نبدأ معاً على فهم مشترك وأرضية معرفية موحّدة.

بما أننا اعتبرنا الأسطورة أحد مصادر البحث الثلاثة، فإن أول اعتقاد يجب أن يُصحح هو نظرتنا إلى الأسطورة لما تحمله هذه الكلمة من معنى رديف للخرافة – في عرفنا– بينما هي ليست كذلك وإنما كان بعضها بالنسبة للإنسان القديم بمثابة أسلوب تعليمي لنظام هذا الوجود لكي يجد دوره الحقيقي فيه، وبعضها الآخر حقائق كونية عميقة ودقيقة تُنبئ عن كشف لأسرار هذا الكون للأوّلين لما في هذه الأساطير من علوم راقية لا يمكن أن يصل إليها الإنسان بدون تعليم سماوي من خلال قوى عليا (أرباب، ملائكة، رسل). فالأسطورة – كما يراها البعض – دين الأقدمين، وحكاية مقدّسة –كما يعرّفها فراس السواح[1] – لكن لا بمعنى القصة المجردة من كل هدف وغاية وإننّا لنجد أنّ بعض الأساطير تتحدّث عن أسرار خلق الكون، وخلق الإنسان الأوّل، وقصة الخطيئة الأولى، وقصة الطوفان، وغيرها، ويتخلّلها مفاهيم وتعاليم وقيم سامية، فكانت الأسطورة توثيقاً لما توصّل إليه الأقدمون من علوم ومعارف بتعليم سماوي عبر (القوى الربانية). إن الأساطير القديمة التي تعود إلى سومر وبابل وغيرها لم تكن أبداً أوهاماً للشعوب القديمة ولا قصصاً من الخيال وإنما أُعطيت هذا الطابع الخيالي من قبل بعض علماء القرون المتأخرة لأنهم عالجوها حسب معتقداتهم الخاصة لا حسب معتقدات مطلقيها وبالتالي أُسيئ

---

[1] – فراس السواح: باحث ومتخصص في الميثولوجيا والتاريخ وتاريخ الأديان، من مواليد حمص ١٩٤١م.

تفسير بعض الألفاظ والتعبيرات والصور التي استخدمت في الأساطير فدخل التحريف على مفهومها وتشتّتت الأفكار بشأنها فهُجرت وغُيّبت من ثقافة الأمة وحدث انقطاع بينها وبين الأجيال المتأخرة.

إنّ القرآن الكريم يذكر كلمة الأساطير في تسع آيات كريمات كلها على لسان المكذّبين بآيات الله أو البعث (**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)(المطففين:١٣) ولكنّه لم يعقّب على قولهم لا بالنفي ولا بالإيجاب وإنما حرص أن يقطع الطريق على مناهضي الدعوة لئلاّ يُستخدم التشابه بين ما جاء في بعض الأساطير وحقائق القرآن الكريم أو الحوادث التاريخية فيه كدليل على أن القرآن ليس من عند الله، أو أنه منتحل منها. إنّ اشتراك الأسطورة مع القرآن في بعض المعارف والحقائق الكونية الثابتة وبعض الحوادث التاريخية والقيم الأخلاقية لا يُشكّك في صدور القرآن من ربّ السماء وإنما يُثبت مصداقية ما جاء في الأسطورة ويؤكّد على أنّ لها علاقة بالتّصوّرات الدينية والاعتقادية الصحيحة. فالأساطير على ما تحفل به من رموز ومحسّنات أدبيّة تتناسب مع أهدافها التثقيفية والتعليمية، إلاّ أنها تحمل من التعاليم السامية والمفاهيم العميقة والحقائق العلمية ما يجعل من مضامينها مصدراً من مصادر المعرفة، فهي إذاً بمثابة التاريخ الذي أصبح سجلاً إنسانياً تستفيد منه المجتمعات الإنسانية كافة رغم تقادم الزمان عليها، بشرط أن نُحسن التعامل معها فلا نقبلها مطلقاً ولا نرفضها جملة وتفصيلاً وإنما نحاول فك رموزها لكشف أسرارها ومعرفة ما جاء فيها من علوم بكر وما احتوت عليه من قيم، فتكون أحد مصادر المعرفة بحق[١].

وأما مدوّنات التوراة – المصدر الثاني للبحث – فقد أُثير عليها الكثير من اللّغط وأصبحت بين نقيضين، بين من يؤكّد لا تاريخيتها ويشكّك في كل تفاصيلها باعتبارها منتحلة بكاملها من الأساطير، وآخر يصدّق على كل ما جاء فيها ويتعامل مع كلماتها كأنها نص سماوي مقدّس، فمرّة يُنظر إليها أنها مجموعة من القصص المنتحلة من الحضارات التي سبقتها أو مجموعة من الخرافات، ومرة تصبح كتاباً مقدساً لا يمكن

---

[١] – راجع بحث: **الأسطورة توثيق حضاري**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

مناقشة نصوصها وإذا وُجد تضارب بينها وبين العلم والعقل والواقع، رُفض العلم، وعُطّل العقل، وكُذِّب الواقع فداء للاهوتية التوراة. بين هؤلاء وهؤلاء نحن نقف مع من يسلّم بأن فيها من تاريخ عشيرة بني إسرائيل الذين كانوا يسكنون في شبه الجزيرة العربية، وأن فيها الكثير من تفاصيل حياتهم وجولانهم في تلك المنطقة، وفيها من تعاليم النبي موسى (ع) وبعض العلوم التي علّمهم إياها، كما نجد فيها من التراث العربي القديم الذي كان محفوظاً شفوياً أو كتابياً وكان يتناقله بنو إسرائيل أينما حلّوا وأينما رحلوا من جيل إلى جيل، وفيها أهواؤهم وآراؤهم كذلك.

التوراة ليست منتحلة من الأساطير لأن فيها من تفاصيل الوقائع والأحداث التاريخية والمواقع الجغرافية الخاصة بهم ما لم تتطرّق إليه الأساطير، ولأنّ فيها أسماء المناطق التي سكنوا فيها ورحلوا منها وإليها في شبه الجزيرة العربية بالتفاصيل الدقيقة، وليست – كلّها – نصاً سماوياً مقدّساً موحى إلى النبي موسى (ع) لأنها كُتبت بعده بألف عام، وفيها ما ينافي المنطق والعقل والواقع ما لا يمكن تقبّله وخاصة فيما له علاقة بالأنبياء (ع) من قبيل ارتكابهم المحرّمات مثل السكر وممارسة الزنا وغير ذلك والشواهد على ذلك كثيرة، كما أنها ليست كتاب موسى (ع) لأن فيها من تحريف الكلم عن مواضعه ما يخلع عنها هذه القدسية ويسلب منها هذه الشرعية، وفي نُسَخها المترجمة في الآفاق حديثاً من الإسقاطات الجغرافية ما أثبته علماء وباحثون متخصصون في هذا المجال مثل: زياد منى في كتابه "جغرافية التوراة – مصر وبنو إسرائيل في عسير"، وكمال الصليبي في كتابه "خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل" حيث أثبتوا أن مسرح أحداث الوقائع التاريخية التي تذكرها التوراة يقع في شبه الجزيرة العربية. من هنا فإن أكبر صعوبة تواجهنا في التعامل مع مدونات التوراة هي محاولة التجرّد والموضوعية أثناء قراءتنا لها وعدم رفضها بحجة أنّها مزوّرة وباطل ما فيها، لكي نتمكّن من تمييّز الصريح من الزائف منها، فرغم علمنا بأن هناك ترجمات مختلفة للتوراة، ويقيننا بأنها تُرجمت بإسقاطات جغرافية لإثبات حقّ مزعوم، إلاّ أننا نعلم كذلك أن هذه الإسقاطات أصبحت واقعاً يعيشه اليهود، ويصدّقه الغرب، ويُسلّم به الكثير من العرب، فمجرد رفضها أو التشكيك فيها لا يُلغي وجودها،

لذا فمن الحريّ بمثقفيّ ومفكريّ ومصلحيّ هذه الأمة قراءتها بتمعّن وتجرّد ليكون التصدّي لقضية التحريف والتزوير علمياً ومدروساً وهادفاً ومثمراً[١].

ذكرنا أننا سنعتمد الأسطورة والتوراة مصدرين تاريخيين من مصادر البحث للتعرّف على تفاصيل حادثة الطوفان في التراث، وتطرّقنا إلى بعض الصعوبات التي قد تواجهنا في قراءتنا لهذين المصدرين، وبقي المصدر الثالث وهو القرآن الكريم؛ فرغم إيماننا بصدق ما جاء فيه يقيناً بما لا يرقى إليه شكّ لعلمنا بأنه لم يُكتب بأيد بشرية، ولا لأجل أهداف خاصة، وليقيننا بأنه محفوظ من الله، لم يأكله الزمن كما فعل في الألواح الطينية التي تنقل لنا علوم الأولين، ولم تعبث به أيدي المغرضين كما جرى على توراة موسى (ع)، ولثقتنا بأنّه كتاب يحمل بين دفّتيه علم الأوّلين والآخرين كما جاء عن رسول الله (ص): "**وإذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين**"[٢]، رغم إيماننا بكل ذلك إلاّ أننا سوف نتعامل مع القرآن الكريم بتجرّد وموضوعية وذلك بعرض أسئلة البحث على آياته ثم مناقشتها وتحليلها للتوصّل إلى الإجابة بأدلّة وشواهد قرآنية. فأسلوب تعاملنا مع المصادر الثلاثة سيكون حيادياً بقراءة نصوصها ضمن سياقها العام.

بين أيدينا إذاً ثلاثة مصادر: الأسطورة، وهي تراث موغل في القدم يخدم المسيرة الإنسانية بما يقدّم لها من علوم علوية، وحقائق بكر اختصت به علوم السابقين وهو ما وصل إلينا من المكتشفات الأثرية بصورة ملاحم وأساطير، ومدوّنات التوراة، وهي تاريخ امتزج فيه الخاص بالعام فلم يسلم من التحريف والتزوير رغم تضمّنه بعض الحقائق الكونية والتعاليم السامية، والقرآن الكريم وهو الكتاب السماوي الخاتم الذي نعتقد أنه يحمل أدلّته بين دفّتيه. فبين الأسطورة والتوراة والقرآن إذاً خيط ناظم، وفي كلٍّ منها عنصر مائز نقارن بينها ونستنطقها في محاولتنا الإجابة على إشكالية هذا البحث وأسئلته.

---

[١] - راجع بحث: **اليهود وتوراة الكهنة**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[٢] - الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ج١، ص٣٣.

أولاً- حادثة الطوفان في الأساطير

رغم الأعداد الهائلة من الألواح الطينية التي اكتشفت في العراق والتي يعود بعضها إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ق.م. فإن حظ حادثة الطوفان من هذه الألواح كان الأقل، فقد تمّ اكتشاف قطعة واحدة فقط في المصادر السومرية تتحدث عن الطوفان وبقيت هي المصدر الوحيد عن الحادثة بعد فقدان أكثر من ثُلثي أسطرها (انظر الصورة:٢)، إلى أن اكُتشفت ألواح "ملحمة جلجامش" فوجدوا أن حادثة الطوفان تشغل القسم الأكبر من اللوح الحادي عشر من الملحمة والتي يبلغ عدد ألواحها اثني عشر لوحاً (انظر الصورة:٣). علمنا أن أساطير معظم الحضارات تحتوي على حادثة تشبه حادثة طوفان نوح (ع)، وذكرنا إن أشبهها بها هي التي عُثر عليها في اللُقى التي تم العثور عليها في العراق، ولكي نكون أكثر دقة فإن النص الأصلي للحادثة هو النص السومري "أسطورة زيوسدرا"، ثم أُضيفت الحادثة إلى ألواح "ملحمة جلجامش" (البابلية)، كما احتوت "أسطورة أتراحاسس" على تفاصيل الحادثة.



(الصورة : ٢) لوح الطوفان السومري بعد فقدان أكثر من ثلثي أسطره



اللوح الحادي عشر من رقيم ملحمة جلجامش الذي يحتوي على قصة الطوفان وقد تمّ العثور عليه في مكتبة آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) (الصورة:٣)

وبما أن الألواح الأصلية لحادثة الطوفان (السومرية) فيها من النقص والكسر ما يُبقي تفاصيل الحادثة غامضة وغير واضحة فسوف نعتمد في بحثنا هذا على تفاصيل الحادثة المذكورة في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش مع الرجوع إلى النص السومري، وأسطورة "أتراحاسس" كلما دعت الحاجة. كما أننا في معرض تحليلنا لتفاصيل حادثة الطوفان من الأساطير سوف نرجع إلى أكثر من ترجمة لهذا النص وذلك طلباً للدقة ومحاولة للتوصل إلى مراد المتحدّث أو كاتب الأسطورة بعيداً عن تأثير المترجم في معاني الألفاظ لعلمنا أن الترجمة لا تعكس الدلالات بدقة، فعلى سبيل المثال تعبّر إحدى الترجمات في وصفها لآثار الطوفان بقولها: (**وتحطّمت البلاد الفسيحة كما تتحطم الجرّة**)، وفي ترجمة أخرى: (**وتحطّمت الأرض الواسعة مثلما يتحطّم الإناء**)، فكلمة (البلاد) في الترجمة الأولى تُفهم بأنها منطقة محدودة، بينما كلمة (الأرض) في الترجمة الثانية توحي بشمول الأرض، وكذا عبّرت ترجمة

"صامويل كريمر"[١] عن المساحة التي اجتاحتها مياه الطوفان بـ (**اكتسح الطوفان البلاد**)[٢]، وعُبّر عنه بترجمة أخرى (**وانداحت سيول الطوفان فوق وجه الأرض**)[٣]، كذلك كلمة (البلاد) هنا لا توحي بأن الطوفان اكتسح العالم، بينما لفظ "وجه الأرض" قد يوحي بأن مياه الطوفان شملت كوكب الأرض، هذا عدا عن الأسطر المفقودة من الألواح والرُقم التي تقطع التسلسل وتُربك المعنى وتفسح المجال للاجتهادات الشخصية والإضافات من قبل القائمين على تعريب وترجمة المعلومات المدوّنة بحسب ثقافتهم واعتقاداتهم.

ولا ننسى كذلك ما تحويه الأساطير من إسباغات بلاغية ومعاني رمزية قد يتوه القارئ فيها إذا لم يأخذها بعين الاعتبار أثناء قراءته وتحليله لها ومحاولة فهمه للمعاني التي ترمي إليها بعيداً عن الرموز المستخدمة، فنقرأ مثلاً في حادثة الطوفان تعبيراً عن أهوال الطوفان: (**وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان، فهربوا وعرجوا إلى سماء آنو، لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب حذاء الجدار!**) فهذه التعابير إنما هي رموز تعبّر بلغة الأسطورة عن قوى الطبيعة، أو تعبير عن لسان حالها، وما أكثره في الشعر، ولا يخلو القرآن الكريم من أمثاله كما في الآية الكريمة: (**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ**)(الدخان:٢٩) فلا السماء تبكي ولا الأرض ولكنه تعبير عن عدم اكتراث الطبيعة بهم، فلا يهولنّك أيها القارئ الكريم وصف (الأرباب) بأوصاف غير لائقة، فهي ليست الإله الواحد الأحد الذي نقدّسه ونسبّحه، وإنما تلك قوى الطبيعة أو قوى علوية ألبسوها لباس الألوهية لما كانت تمثّله من قوّة بالنسبة لهم، ولذا فإنّ كلّ لفظة "إله" و"آلهة" وضعناها إنّما لأمانة النقل من نصوص المترجمين والمعرّبين، وإلاّ

---

[١] – صامويل كريمر: باحث متخصص في علم الآثار حصل على تدريبه العلمي في جامعة بنسلفانيا التي اشتهرت ببحوثها وتحرياتها وتنقيباتها الآثارية في الموضع السومري الشهير (نفر)، وبعد تخرّجه من تلك الجامعة اشترك في بعثة للتنقيبات أرسلتها هذه الجامعة في عام ١٩٣٠ إلى العراق واشتغل ردحاً من الزمن بصفته عضواً في هيئة الباحثين في المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو.

[٢] – صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص٢٥٧.

[٣] – سهيل قاشا، **التوراة البابلية**، ص١٣٢.

فهـي ترجمـة خاطئـة، والأصـحّ منـها "مُـدبّر، مسـئول، ربّ، راعـي، ملَـك، قـوّة، مسبّب..الخ"، كما فُصِّل ذلك في بحث (التوحيد .. عقيدة الأمّة منذ آدم).

هذا بالنسبة للغة الأسطورة وتعابيرها أما بالنسبة لفهم مترجمي الأساطير لتلك الرموز فهنا يقع سوء فهم لمحتوى الأسطورة وتفاصيلها فيوحي بوجود اختلاف جوهري بين المصادر بينما لو فُهمت الرموز كما قصدها مدوّنو الأسطورة لما وجدنا اختلافاً كبيراً بينها، فعلى سبيل المثال اعتقد مترجمو الأسطورة أنّ (أيا) هو أحد الآلهة المدبّرين الذين حضروا قرار إحداث الطوفان في مجمع الآلهة، وأنّه أعلم أتونفشتيم على غفلة من مجمع الآلهة، وهو الذي احتجّ على (إنليل) لقضائه على البشر كلهم، ولكن لو افترضنا أنّ (أيا/حيا) يرمز إلى (غريزة الحياة) أو (القوى المسؤولة عن البقاء) وأن احتجاجه على إهلاك البشر كان طبيّعياً لأنه يرفض أن تُسلب الحياة من الجميع ويتمنى لو اقتصر العقاب على المذنبين فقط، لوجدنا ترابطاً وانسجاماً بين الشخصيات والأحداث ولما وقع اللبّس لدى مترجميها، فرمز الحياة (أيا/حيا) حين يقول لـ(إنليل/عين الإله): (**ولو أنك بدلاً من إحداثك الطوفان سلّطت السباع على الناس فقلّلت عددهم - الخ**) يقوم بدوره الطبيعي لأنه يمثّل الحياة ويدافع عن استمراريتها، بينما إذا اعتُبر أنه أحد الآلهة المدبّرين فهذا يعني أنّ هناك خلافاً بين الآلهة على قرار الطوفان بينما نجد أن القرآن يبيّن أن قرار الطوفان كان صادراً من مجموعة المدبّرين (الملائكة) بدليل ضمير الجمع الذي صيغت به الآيات التي عبّرت عمّا أوحي إليه كما في قوله تعالى: (**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**)(المؤمنون: ٢٧) وغيرها من الآيات التي تؤكّد على أن (الملائكة المدبّرين) كانوا متّفقين جميعاً على ما حدث وإن كان المتكلّم مع نوح هو واحد فقط. وكذلك وقعوا في لبس حين اعتبروا عشتار أحد الآلهة المدبّرين وافترضوا أنّها هي السبب في قرار الطوفان الصادر عن مجمع الآلهة، فنقرأ (**وصرخت "عشتار" كما تصرخ المرأة في الولادة، انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجي نادبة - لأني نطقت بالشرّ في مجمع الآلهة - لقد سلّطت الدمار على أناسيّ - الخ**) بينما لو اعتبرناها رمزاً للطبيعة التي ضجّت وتألّمت وبكت لهول الكارثة التي عمّت وأفسدت ما تبنيه وتنسله وتُكثّره، لو نظرنا إليها من هذه الزاوية لوجدنا ترابطاً وثيقاً بين

الأحداث وأدوار رموزها، ولحُلّت بعض التساؤلات التي تعرض على مترجمي الأسطورة وتستوقفهم نتيجة للخلط الذي يقع في تسمية الرموز الموجودة في الأسطورة.

ونختم مقولتنا هذه بكلمة للاختصاصي الشهير في المباحث السومرية "صمويل كريمر"حيث يقول معترفاً بالأخطاء التي وقع فيها في تفسيره لبعض الأساطير التي قام بترجمتها ودراستها ومنوّهاً بالأسباب التي قد تؤدّي إلى هذه الأخطاء: "...ولقد نشرت المحاولة الأولى التي قمت بها في جمع وترجمة هذه الأسطورة في كتابي (الميثولوجيا السومرية) ولكن جاء في تفسير حوادث الأسطورة جملة أخطاء خطيرة كان بعضها نتيجة للإغفال والبعض الآخر نتيجة للتورّط في الرأي .."![1]، لذا فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الملاحظات أثناء قراءتنا للأسطورة وتحليلنا لأحداثها ومقارنتها بالمصادر الأخرى.

سوف نستعرض مقاطع من حادثة الطوفان من اللوح الحادي عشر من "ملحمة جلجامش" التي سنناقشها في الفصول القادمة وذلك لكي تكون بين يديّ القارئ يقرأها ويتأمّل فيها تمهيداً لمناقشتها وعقد المقارنة بينها وبين ما جاء في المصادر الأخرى.

مقاطع من حادثة الطوفان من ملحمة جلجامش:

سنستمع إلى تفاصيل حادثة الطوفان على لسان بطلها– إن صحّ التعبير- "أتونفشتيم" في النص البابلي، "زيوسدرا" في النص السومري، Noah في التوراة، ونوح (ع) في القرآن، نستمع إليه وهو يقصّها على بطل مدينة أورك وملكها جلجامش – حفيد أتونفشتيم- الذي حكم بعد حوالي ٢٠٠ سنة من حادثة الطوفان (انظر الصورة).

---

[1] – صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص ١٦٤ .



(الصورة:٤) جلجامش

... بعد أن يذكر جلجامش لـ"أتونافشتيم" بعض المخاطر والصعوبات التي واجهته في رحلته للوصول إليه قال له:

أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود؟

فقال أتونافشتيم لجلجامش:

يا جلجامش ـ سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً،

سأطلعك على سرّ من أقدار الآلهة

تذكر الأسطورة – حسب تفسير معرّبيها - أنه بعد أن أجمعت الآلهة الأربعة (آنو، إنليل، ننورتا، أنوناكي) على إحداث الطوفان، أُعلم "أوتونفشتيم" بقرار الآلهة بواسطة (أيا/حيا) ونقل كلامهم إليه ليحذّره من الطوفان، ثم علّمه كيف يبني سفينة النجاة:

يا كوخ! يا كوخ القصب! يا جدار ، يا جدار!

اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط

أيها الرجل (الشروباكي)[1] يا بن (أوبار – توتو)

قوّض البيت وابنِ لك فلكاً

تخلَّ عن مالك وانشد النجاة

انبذ الملك وخلّص حياتك

واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة

و السفينة التي ستبني

عليك أن تضبط مقاسها

ليكن عرضها مساوياً لطولها

واختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ (أبسو) (أي مياه العمق أو المياه الجوفية)

....

ثم يأتي أوتونفشتيم على ذكر تفاصيل بناء السفينة ومن حمل معه فيها :

وحملتُ فيها كل ما أملك من ذهب

أركبتُ في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي

وحملتُ فيها كل ما عندي من المخلوقات الحية

أركبتُ فيها حيوان الحقل وحيوان البر

وجميع الصناع أركبتهم فيها ...

وهكذا أتمّ أتونفشتيم بناء السفينة حسب التعليمات التي أُعطيت إليه، وبيّن أنّه أُعطي علامة على بدء الطوفان:

وضرب لي الإله (شمش) موعداً معيّناً بقوله:

(حينما ينزل الموكل بالعواصف في المساء بمطر الهلاك

---

[1] - إن بعض الترجمات الأجنبية لا تسمّيه (الرجل الشروباكي) وإنما تذكر مدينة شروباك قرب نهر الفرات/الثرات (في الجزيرة العربية) وهي بيت السادة المدبّرين (أنونو، أنو، إنليل):

Here is knowledge that no other has ever been told
Near where Euphrates born sits a city you call Shuruppak, home of those divine.
Anunu, Anu, and Enlil were at Shuruppak.
http://www.mythome.org/gilgamesh.11html

فادخل في السفينة وأغلق بابها)

ثمّ عبّر بدقة عن تفاصيل هذه الكارثة المهولة وكيفية حدوثها، واصفاً الخسائر التي نجمت عنها:

ونزع الإله (ايراگال)[١] الأعمدة

ثم أعقبه الإله (ننورتا)[٢] الذي فتق السدود

ورفع الـ (آنوناكي)[٣] المشاعل

وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها

وبلغت رعود الإله (أدد)[٤] عنان السماء

وبلغ الخوف من الإله أدد إلى السماوات

فأحالت كل نور إلى ظلمة

وتحطّمت البلاد الفسيحة كما تتحطّم الجرّة

وظلّت زوابع الريح الجنوبية تهبّ يوماً كاملاً

وازدادت شدّة في مهبّها حتّى غطّت الجبال

وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان

وصار الأخ لا يبصر أخاه

ولا الناس يميزون في السماء

وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان

فهربوا وعرجوا إلى السماء (آنو)

---

(١) – إيراگال: إرّى: توقّد. جل: عظم، أي الموقد العظيم، أو الجبل المتوقّد العظيم.

(٢) – نينورتا، أو ننورتا: نين/نينا تعني السيّدة، ونورتا تعني الزهر، وفي العربية الفصحى "نوَر"، إذاً نين-نورتا هي ربّة أو القوّة المسئولة عن الجبل المزهر.

(٣) – أنو- ناكي: أنو: سماء، علويّ، رفيع، سيّد، ناكي: نقي، طاهر، فهم أنقياء السماء، السادة الأطهار، الملائكة.

(٤) – قد يكون أصل الكلمة "هدد" أي دويّ الهدّ، أو الصوت العظيم، ومنها تأتي كلمة (هدّد) وتعني خوّف وتوعّد، والعبارة هنا تعني: ارتفعت الأصوات المفزعة التي نجمت عن انفجار البراكين إلى السماء.

واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن ...

مضت ستة أيام وستّ أمسيات

ولم تزل زوابع الطوفان تعصف وقد غطّت الزوابع الجنوبية البلاد

ولما حل اليوم السابع خفّت وطأة زوابع الطوفان في شدّتها

وقد كانت تفتك كالجيش في الحرب العوان

ثم هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان

وأخيراً، يصف مشاعره عندما وجد أن السكون يخيّم على كل مكان:

وتطلّعت إلى الجو، فوجدتُ السكون عامّاً

ورأيتُ البشر وقد عادوا جميعاً إلى طين

وكالسقف كانت الأرض مستوية

فتحت كوّة طاقتي فسقط النور على وجهي

سجدّت وجلست أبكي

فانهمرت الدموع على وجهي

ويذكر موقع استقرار السفينة ...

واستقرّ الفُلك على جبل (نصير)

لقد ضبط (مسك) جبل نصير السفينة ولم يدعها تجري

ومصير "أوتونفشتيم" بعد انتهاء الطوفان

ـ وأُدخل "أوتونفشتيم" في الخالدين ـ

ثم علا (إنليل)[1] فوق السفينة

وأمسك بيدي و أركبني معه في السفينة

و أركب معي أيضاً زوجي وجعلها تسجد بجانبي

ووقف ما بيننا ولمس ناصيتينا وباركنا قائلاً:

---

[1] –"إنليل": وهو اسمٌ يُمثّل قدرة الله وأمره، إذا استُبدلت الألف عيناً فتصبح عين- إيل أي عين الله، تعبيراً عن أحد الملائكة المدبّرين.

لم يكن (أوتونفشتيم) قبل الآن سوى بشر
ولكن منذ الآن سيكون (أوتونفشتيم) وزوجه مثلنا نحن الآلهة
وسيعيش (أوتونفشتيم) بعيداً عند (فم الأنهار)[١]....

هنا نريد أن ننوّه إلى أنّ مترجمي الأسطورة وقعوا في جملة أخطاء للأسباب التي ذكرناها آنفاً.

ثانياً- الطوفان من سِفر التكوين

قبل أن ننتقل إلى قراءة نص التوراة الخاص بحادثة الطوفان تمهيداً لعقد المقارنة بينه وبين المصادر الأخرى، نود أن نؤكّد ونذكّر ثانية أننا نقف بين من يشكّك بكل تفاصيل التوراة ويعتبرها منتحلة جملة وتفصيلاً ويُدلّل على لا تاريخيّتها بما يمكنه من أدلة جغرافية وآثارية وجيولوجية، ومن يتمسّك بحرفية نصوصها وينزهها عن النقد والتحليل والمناقشة. فمدوّنة التوراة إذاً تاريخ خاص كُتب بعد موسى بما يقارب الألف سنة فداخلته نفسية وأماني مدوّنيها وأهواؤهم وآراؤهم فلم تسلم مدوناتها من الحذف والإضافة، وطالها التحريف والتزوير حسب تغيّر الزمان والظروف، وأُسيء استخدامها، وطُوّعت حتى صارت تخدم أغراضاً محدّدة، وهذا لا يعني أننا ننكر أنها تحمل في طيّاتها من العلوم العلوية والتعاليم الأخلاقية التي أُعطيت لهم من قبل المعلّمين الأوائل (أنبياء ورُسل).

ولا ننسى أن نذكّر أن ما واجهنا في فهم الأساطير من صعوبات، واجهنا في التعامل مع التوراة فيما له علاقة بترجمة بعض الكلمات أو فهمها خارج سياقها وبعيداً عن زمنها والاستخدام الدارج لها، فمثلاً كلمة (ملِك) توحي لنا بأنّه لابدّ أن يكون ملكاً على مملكة أو أمّة كبيرة أو شعب بينما يظهر من تتبّع هذه الكلمة في التوراة أن (ملك) التوراتية تطلق على كل من تزعّم بيتاً أو أسرة أو عشيرة أو جزءاً من عشيرة،

---

[١] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص ١٦٤. ولقراءة النص الكامل الرجوع إلى المصدر المذكور ص ١٥٢ - ١٦٤.

فنقرأ في التوراة: ملك أدمة، ملك عيلام، ملك سدوم، وملك عمورة وتلك كلها أسماء قرى صغيرة أو عشائر، وفي القاموس الملك تعني "صاحب الأمر على أمّة أو قبيلة أو بلاد"[1]، ورؤساء قبيلة كندة كانوا يسمون ملوكاً، وفي القرآن نقرأ على لسان بلقيس: (**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً**)(النمل: ٣٤) لاحظ ملوك يدخلون قرية، وقال لبني إسرائيل وهم عشيرة: (**وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**)(المائدة:٢٠). وكذلك بالنسبة للترجمة، فعلى سبيل المثال كلمة (الأرض) أو (وجه الأرض) التي كثر استخدامها في وصف تفاصيل حادثة الطوفان يُعبّر عنها فيما يُسمّى بالنص العبري(!) مرّة بـ ('ădâmâh) وتُترجم باللغة الإنجليزية إلى عدّة معاني مثل[2]:

(soil: country, earth, ground, land)

ومرّة أخرى يُعبّر عنها بـ (Erets) وهي "أرص/أرض" وهي لهجة عربية حيث تُلفظ الضاد صاد بثقل الزاي كما لدى مصر والشام وفارس في يومنا، وتُترجم إلى:

(the earth, courntry, field, ground, land, way, world, wilderness)

فنلاحظ أن الكلمة الواحدة لها معاني واسعة جداً قد تعني في أحد ألفاظها العالم، وقد تعني الحقل، أو الطريق، أو المدينة، أو البرية، أو العقار، فتصّور كم سيختلف المعنى بناء على اللفظ الذي يتمّ اختياره في الترجمة، نضرب مثالاً لاستخدام كلمة الأرض في أحد نصوص التوراة لتوضيح الفكرة:

And every living substance was destroyed which was upon the face of the ground, both man, and cattle, and the creeping things, and the fowl of the heaven; and they were destroyed from the earth: and Noah only remained alive, and they that were with him in the ark.(Gen 7 : 23)

فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأرضِ: النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّبَّابَاتَ وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرضِ وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ (تكوين ٧ : ٢٣) .

[1] - **المنجد في اللغة والأعلام**، ص ٧٧٤.

[2] - Rick Meyers, E-Sword, Ver10.7,2000-2004, http://www.e-sword.net

إن كلمـة الأرض المسـتخدمة في النسـخة العبريـة[1] تُرجمـت مـرّة عـن الأصـل العبري(!) ('ădâmâh) وتُقرأ (أدمة) وقد تعني التربة أو الطين أو أدمة الأرض كما جـاء في جـامع البيـان: "وخلـق الله آدم مـن أدمـة الأرض، مـن طـين لازب .."[2]، ومـرة أخـرى تُرجمت عن الأصل العبري(!) (Erets - eh'-rets)، وتُقرأ: أرص وتعني الأرض بالعربية بإبدال بين الصـاد والضـاد، بينمـا في الترجمـة الإنجليزيـة كـانوا أكثـر دقـة فاسـتخدموا كلمة (the ground) بدلاً من وجه الأرض، ثم استخدموا كلمة (the earth) للتعبير عـن (أرص) العبريـة (!). فالترجمـة كـان لهـا دور كـبير في توجيـه الفهـم لنصـوص التـوراة، فكلمة (the ground) لا توحي للقارئ أبـداً بـأن المقصـود منـها العـالم أو كوكـب الأرض بينمـا كلمـة (الأرض) أو (وجـه الأرض) أو (كل وجـه الأرض) تُضـلّل القـارئ فيعتقـد أنّ كل من كان على كوكب الأرض مات. ومثال آخر لنبيّن كم تتغير المعـاني بسـبب الترجمـة وإعادة الترجمة:

All in whose nostrils was the breath of life, of all that was in the dry land, died.

---

[1] – مع علمنا بأنه لا توجد على الحقيقة لغة عبرية وإن ما تعـارف عليـه بمـا يُسـمّى باللغـة العبريـة اليـوم مـا هـي إلاّ أحـد لهجـات العربيـة القديمـة وبـالأخص السـريانية، فلـو رجعنـا لأصـول الكلمـات لوجـدنا أن معظمهـا كلمـات عربيـة أو قريبـة منـها فعلـى سـبيل المثـال لا الحصـر نقـرأ هـذا الـنص بترجماته المختلفة:

The waters receded from the earth continually. After the end of one hundred fifty days the waters decreased.

وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأرض رُجُوعا مُتَوَاليا . وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْما نَقَصَتِ الْمِيَاهُ

וישבו המים מעל הארץ הלוך ושוב ויחסרו המים מקצה חמשים ומאת

مايم – صب – من – عال – أرص – هلك – صب – من – قصّه – مية – خمشيم – يوم – مـايم – خسر

فالترجمة الحرفية: الماء (جعل) يصب من أعلى الأرض صب هـلاك، ومـن (بـدء) القصّـة (بعـد) مائـة وخمسين يوما الماءُ حسر. فقط لنري القارئ فروقات الترجمة وماذا تُحدث من بلبلـة، قـارن الترجمـة العربية للتوراة بما ترجمناه.

[2] – الطبري، **جامع البيان**، ج١، ص٢٩٩.

ومكتوبة بما يُسمى لسان عبري (كل. أف. نشمة. روخ. خياه. من. كل. عشر. خربة. ماث)، أي: كل أنف (به) نسمة روح حياة من كل عشير (ساكن) الخربة (المنطقة التي تصحّرتْ) مات. ثم تُترجم إلى العربية: كُلُّ مَا فِي انْفِه نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ.

كلمة اليابسة في النسخة العربية، تُرجمت عن the dry land الإنجليزية، المترجمة عن النسخة العبرية(!) chârâbâh (خرابة)، فأين اليابسة من الخرابة! لو التزمت الترجمة العربية بما جاء فيما يسمّى بالنسخة العبرية ربما كان المعنى أقرب لواقع الحدث فيكون المعنى هنا "أن كلّ ما كان ذا حياة ممّن كان في الأرض الخربة مات"، وتصبح (خرابة) هنا تعني الأرض التي خربت ودُمّرت بسبب الطوفان.

هذان مثالان فقط وهناك الكثير من الكلمات والألفاظ المستخدمة في التوراة التي تعني شيئاً بلغة من كتبها، وتُترجم إلى معنى ثاني حسب فهم المترجم وثقافته، ثم تُفسّر إلى معنى ثالث حسب علم المفسّر أو هواه، لذا فإنّ تعاملنا مع التوراة يجب أن يكون بحذر شديد وموضوعية مع محاولة الرجوع إلى الأصل المسمّى بـ (العبري) قدر الإمكان وخاصة فيما يُختلف عليه من آراء.

مقاطع من حادثة الطوفان في مدوّنات التوراة:

تشغل حادثة الطوفان نصوص سِفر التكوين من ٦ : ١ إلى ٨: ٢٢، فتبدأ بذكر الأسباب الأخلاقية التي عرّضت قوم نوح (ع) لعقوبة الإغراق:

وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ

إِنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا.

فَقَالَ الرَّبُّ: «لا يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ. لِزَيَغَانِهِ هُوَ بَشَرٌ وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً».

كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلادا - هَؤُلاءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ.

ثم تمدح نوحا (ع) وأبناءه بأنّه كان باراً، كاملاً في أجياله ...

وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ

هَذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلا بَارّا كَامِلا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ.

وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاثَةَ بَنِينَ: سَاما وَحَاما وَيَافَثَ.

وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ وَامْتَلَأَتِ الأَرْضُ ظُلْما.

وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ افْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ.

وتبيّن أنّ نوحاً أُعلم بخبر الطوفان الذي سيُهلك المذنبين من قومه، وأُمر ببناء سفينة بهندسة خاصة ينجو فيها هو ومن معه:

فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْما مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ.

اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِنَ وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ.

وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلاثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكِ وَخَمْسِينَ ذِرَاعا عَرْضُهُ وَثَلاثِينَ ذِرَاعا ارْتِفَاعُهُ.

وَتَصْنَعُ كَوّا لِلْفُلْكِ وَتُكَمِّلُهُ إِلَى حَدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقُ. وَتَضَعُ بَابَ الْفُلْكِ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِنَ سُفْلِيَّةً وَمُتَوَسِّطَةً وَعُلْوِيَّةً تَجْعَلُهُ.

فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ. (انظر الصورة: ٥)



صورة متخيلة لسفينة نوح (ع) كما تصورها بعض الكتب والأفلام بحسب ما جاء تفصيلها في التوراة (الصورة: ٥)

وقد أُعلم بموعد الطوفان:

... لأنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أيَّامٍ أيْضا أمْطِرُ عَلَى الأرْضِ أرْبَعِينَ يَوْما وَأرْبَعِينَ لَيْلَةً ...

وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأرْضِ

فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ.

وَمِنَ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأرْضِ:

دَخَلَ اثْنَانِ اثْنَانِ إلَى نُوحٍ إلَى الْفُلْكِ ذَكَرا وَأنْثَى. كَمَا أمَرَ اللهُ نُوحا.

ثم تصف التوراة كيفية حدوث الطوفان، وتذكر بدقّة من أين أتت المياه التي غمرت تلك المنطقة حتى غطّت التلال العالية فيها، وتلك أحد المعاضل التي حيّرت العلماء والمحقّقين في تفاصيل هذه الحادثة ..

وَحَدَثَ بَعْدَ السَّبْعَةِ الأيَّامِ أنَّ مِيَاهَ الطُّوفَانِ صَارَتْ عَلَى الأَرْضِ.

فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ.

وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

وتسهب في توضيح نسبة ارتفاع المياه، وفترة بقاء الماء على الأرض، ثم تسطّر بالتفصيل الدقيق المغرَقين في الطوفان ..

وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ فَارْتَفَعَ عَنِ الأَرْضِ.

وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدًّا عَلَى الأَرْضِ فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.

وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيرًا جِدًّا عَلَى الأَرْضِ فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ.

خَمْسَ عَشَرَةَ ذِرَاعًا فِي الارْتِفَاعِ تَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ فَتَغَطَّتِ الْجِبَالُ.

فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَكُلُّ الزَّحَّافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ وَجَمِيعُ النَّاسِ.

كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ.

فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّبَّابَاتَ وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ.

وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا.

ثمّ تصف كيف انتهى الطوفان، وأين استقرّت السفينة:

وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ.

وَرَجَعَت الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعا مُتَوَالِيا. وَبَعْدَ مِئَةِ وَخَمْسِينَ يَوْما نَقَصَتِ الْمِيَاهُ وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ.

وبعد انتهاء الطوفان تذكر مدوّنات التوراة مجموعة من التعليمات والقوانين والتشريعات التي سُنّت لتنظّم حياة الناجين وتحصّنهم من الوقوع فيما وقع فيه من سبقوهم، وتذكر الميثاق الذي أُقيم بينهم وبين اللّه:

وَبَارَكَ اللهُ نُوحا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «اثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ.

وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ وَكُلِّ اسْمَاكِ الْبَحْرِ. قَدْ دُفِعَتْ إِلَى أَيْدِيكُمْ.

كُلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَاما. كَالْعُشْبِ الأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ الْجَمِيعَ.

غَيْرَ أَنَّ لَحْما بِحَيَاتِهِ دَمِهِ لا تَأْكُلُوهُ.

وَاطْلُبُ أَنَا دَمَكُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَقَطْ. مِنْ يَدِ كُلِّ حَيَوَانٍ اطْلُبُهُ.

وَمِنْ يَدِ الإِنْسَانِ اطْلُبُ نَفْسَ الإِنْسَانِ مِنْ يَدِ الإِنْسَانِ أَخِيهِ.

سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ. لانَّ اللهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الإِنْسَانَ.

فَاثْمِرُوا أَنْتُمْ وَاكْثُرُوا وَتَوَالَدُوا فِي الأَرْضِ وَتَكَاثَرُوا فِيهَا».

وَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ وَبَنِيهِ:

«وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ

وأخيراً، ما تفرّدت به مدوّنات التوراة دون غيرها من المصادر في إضافة يندى لها الجبين فيما وصموا به نبي اللّه نوحاً (ع) بأنه سكر وتعرّى في خبائه، فلعن كنعان وبارك لسام !! وهو البارّ، الكامل في أجياله بشهادة التوراة نفسها، وهذا ما سنقف عنده لتحليله ومناقشته في نهاية هذا الفصل لمعرفة الأسباب التي حدت بمدوّني التوراة الافتراء على النبي نوح (ع) بما جاء في هذا النص وكيف طوّع لخدمة أغراضهم الخاصة.

وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَاما وَحَاما وَيَافَثَ وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ.

هَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هَؤُلاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ.

وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلَّاحا وَغَرَسَ كَرْما.

وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ.

فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجا.

فَاخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ

وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا.

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ

فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ».

وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلَهُ سَامٍ وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُ.

لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»

ثالثاً- الطوفان من القرآن الكريم

لقد اعتبرنا القرآن الكريم أحد المصادر الثلاثة التي سنعقد مقارنة بينها ورغم علمنا بأنّه المصدر الوحيد الذي لم تصل إليه أيدي العابثين ولن، إلاّ أنّنا وتوخّياً للموضوعية العلمية فسنقرأ القرآن كقراءتنا للمصدرين السابقين، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الذي وردت فيه الآيات، وباستقراء الآيات القرآنية ذات العلاقة، وتطبيق أسس النظام القرآني وقواعده[1]. كما عرضنا بعض مقاطع الحادثة من

---

[1] – راجع بحث: **مفاتح القرآن والعقل**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

الأسطورة ومن مدوّنات التوراة، سوف نستعرض بعض الآيات القرآنية التي تفصّل حادثة الطوفان وذلك ليسهل على القارئ الاطّلاع عليها وتمهيداً لمناقشتها فيما بعد.

إن قصة النبي نوح (ع) مع قومه وتفاصيل حادثة الطوفان مذكورة في أكثر من عشر سور بتفصيل حيناً وبإيجاز أحياناً أخرى، حتى تكاد تكون أحد أكثر الحوادث ذكراً في القرآن الكريم، أمّا أكثرها تفصيلاً فقد جاء في سورة هود بتعبير بليغ ودقيق بحيث ينقل القارئ إلى زمان الحدث وموقعه وأجوائه فيستشعر آلام نبي الله نوح (ع) من عتوّ قومه في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ❁ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ❁ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ❁ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)(نوح: ٢٥ – ٢٨)

وتوضّح بعض الآيات الأمر الإلهي له ببناء الفلك استعداداً للحدث ووسيلة للنجاة:

(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ❁ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ❁ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)(نوح: ٣٧ – ٣٩).

وأُعطي علامة على بدء الطوفان في آيتين:

(حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)(هود:٤٠).

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)(المؤمنون:٢٧).

وتصف كيفية حدوث الطوفان:

(**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)(القمر:١١، ١٢)

وعظمة الحدث:

(**وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**)(نوح: ٤١ – ٤٣)

وكيفية انتهائه:

(**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)(نوح: ٤٤)

وقد أفرد القرآن الكريم سورة باسم النبي نوح (ع) لخّص فيها رحلته المضنية مع قومه في دعوته لهم لعبادة اللّه وطاعته، منذراً إياهم من حدث آت في أجلٍ لا يؤخّر (**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**)(نوح: ٤) ومستعرضاً ما استخدم من أساليب في سبيل إرجاعهم إلى جادّة الصواب، مذكّراً بنعمه تارة، ومحذّراً من سخطه أخرى، ذاكراً مكابرتهم وعنادهم، ومعبّراً عن حجم الطغيان الذي آل إليه أمرهم بدعائه عليهم: (**رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**)(نوح: ٢٦، ٢٧)، وليختم بعد ذلك بدعائه لوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات: (**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ـ**)(نوح: ٢٨).

رابعاً- بين الأسطورة والتوراة والقرآن الكريم

كانت تلك بعض المقاطع من حادثة الطوفان ذات العلاقة بموضوع بحثنا من المصادر الثلاثة أوجزناها للقارئ تمهيداً لعقد المقارنة بين ما جاء فيها من أحداث، وسنبدأ باستعراض بعض نقاط التشابه والاختلاف لنؤكّد على وحدة تراث الأمّة

المتمثل في (الأسطورة، التوراة، القرآن) ولنبيّن أهمية الرجوع إليها بهدف إحياء ما استُبعد منها من ثقافة الأمة كالأساطير، وكشف التزوير والتحريف الذي طرأ على الآخر كمدوّنات التوراة، وتصحيح الفهم فيما يخص الآيات القرآنية الكريمة بقراءته قراءة ثانية ضمن نظامه وقواعده.

أ- أوجه الشبه بين المصادر الثلاثة

تتشابه المصادر الثلاثة كثيراً في الأحداث الرئيسة وبعض التفاصيل حتى ظن بعض المؤرّخين أن المصادر المختلفة اقتبستها من بعضها البعض، وقد بيّنا عدم صحة هذه الفرضية وذلك لاحتفاظ كل مصدر من المصادر بخصوصيته التي تميّزه عن المصدرين الآخرين، هنا نذكّر بعض أوجه الشبه فيما له علاقة بموضوع البحث:

١- العلم مسبقاً بوقوع الحادثة

إن أوّل تشابه نجده بين المصادر الثلاثة هو العلم مسبقاً بحدوث كارثة طبيعية في منطقة سكنى نوح (ع)، وأن هذه الكارثة بحاجة إلى وسيلة نجاة خاصة بحيث يُعلَّم المعنيّون كيفية بنائها وإعدادها، ففي الأسطورة قال أتونفشتيم لجلجامش أنه أُعلم من قبل الأرباب (الملائكة أو الوحي) بأن طوفاناً سيأتي على البلاد : "**إن الآلهة العظام قد حملتهم قلوبهم على إحداث الطوفان .**"، وكذلك في قول أحد الآلهة التي نقلت الخبر إلى "أتونفشتيم":

يا كوخ! يا كوخ القصب! يا جدار، يا جدار!
اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط
قوّض البيت و ابنِ لك فلكاً

أما في التوراة فقد جاء: (**فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: "نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ" وكذلك: " اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ"**)، وفي القرآن الكريم: (**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**)(هود:٣٧).

٢- وجود رمز بشري أو منقذ

وجود رمز بشري أو بطل للحادثة ليس بإله ولا مَلَك، يرمز له بأسماء مختلفة حسب اختلاف أدواره أو صفاته، فتتّفق مدوّنات التوراة التي تسمّيه Noah وتعني rest[١]: مع القرآن الذي يسمّيه نوح والذي يعني أناخ هدأ وارتاح ويرجع أصلها إلى (نوخ) بالإقلاب بين الحاء والخاء في العربية القديمة، ويعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: (**يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ منَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**)(هود: ٤٨) فهو الهابط بسلام، وتختلف مع الأساطير التي تسمّيه مرّة (زيوسدرا) أي ذو الصدر أو ذو الصدارة أي الزعيم الحليم، وثانية (أوتونفشتيم) بمعنى الذي حاط النفوس أي حفظها، وثالثة (أترا-حاسس) أي صاحب "أثرى إحساس" ويُترجمونه المتناهي في الحكمة، وقد تكون بمعنى عترة-خاشش أي مُخبّئ العترة أي المحتفظ بالنسل وحافظه، أو إطراء-خاصص: المخصوص بالحمد والإطراء كما في قوله تعالى: (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)(الصافات:٧٩) وهذا الاختلاف في الأسماء طبيعي حيث يطلق كل قوم على الشخصية المقدّسة بالنسبة لهم اسماً يعبّر عن الدور الذي يمثّله أو الرمز الذي يشير إليه.

٣- وصف الفلك

تُسهب الأساطير والتوراة في وصف الفلك فتبيّن أنها صُنعت بهندسة خاصة وبتعليم من خبير بحيث تُحدّد أطوالها وارتفاع طبقاتها وأقسامها المختلفة، وموقع الباب، والفتحة التي تدخل منها الشمس وغير ذلك من تفاصيل، فقد جاء في ملحمة جلجامش:

"وكان سطح أرضها "إيكو"[٢] واحداً

وعلو جدرانها مئة وعشرين ذراعاً

وطول كل جانب من جوانب سطحها الأربعة مئة وعشرين ذراعاً

---

(1) - Strong's Hebrew and Greek Dictionaries,5146.

(٢) - الإيكو في البابلية وحدة لقياس المساحات تقدّر بـ٣٦٠٠ متراً مربّعاً.

حدّدت شكلها الخارجي وبنيتها هكذا:

جعلت فيها ست طوابق تحتانية الخ"[1]

وكذلك التوراة فإنها تفصّل تفصيلاً دقيقاً في وصف السفينة وطريقة صناعتها نذكر بعضاً مما جاء فيها لنرى وجه الشبه بينها وبين الأساطير: "**وهكذا تصنعه، ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه. وتصنع كوا للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله**"(تكوين ٦ : ١٥-١٦)، ما يدلّ أنها لم تكن فلكاً عادية، وإنما عُدّت بطريقة بحيث يضمن نجاتها مهما عظم الحدث، وقد عُبّر عنها بأنها كانت أشبه بعوامة ضخمة مكعبة الشكل مقسّمة إلى أقسام ومكوّنة من سبع طوابق على شكل برج مدرّج بحيث يعطيها قابلية العوم والتوازن في مواجهة الرياح والعواصف بسبب تدرج ارتفاع طوابقها مما لو كانت سفينة ذات شكل تقليدي[2]. إن وجه الشبه الذي نجده مشتركاً بين الأساطير والتوراة وبعض الروايات هو أن الفلك التي أُمر نوح بصنعها شُبهت بالبيت، ففي الأسطورة: "**قوّض البيت وابن لك فلكاً**"[3]، وفي ترجمة أخرى: "**هدّم بيتك وابن سفينة**"[4]، وفي التوراة: "**تجعل الفلك مساكن**"(تكوين٦:١٤)، وقد ذكرت كتب التاريخ معنىً قريباً من هذا: "... أن قوم نوح (ع) لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بُنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال أبني بيتاً يمشي على الماء"[5]، وربما تكون سخرية قومه منه لأنه كان يبني السفينة في منطقة برّية، وربما بسبب غرابة هندستها، ما يوحي بأن وسيلة النجاة التي أُمر نوح (ع) أن يبنيها لم تكن مجرد قارباً للنجاة، بل ربما بيتاً يمشي على الماء أو ما يماثله، أمّا القرآن الكريم فإنه يذكر الوسيلة التي نُجّي فيها نوح ومن معه بأسماء مختلفة،

---

[1] – طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص١٥٧ .

[2] – فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان في المراجع السماوية**، ص ٦٥ .

[3] – طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص ١٥٥ .

[4] – فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان في المراجع السماوية**، ص ٦٢ .

[5] – ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج٤ ، ص ٨٤.

فيسمّيها فلكاً في سبع آيات، ويسمّيها "جارية" (**إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**)(الحاقة:١١) ويسمّيها (**ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ**)(القمر:١٣)، ويذكر أنها (**تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**)(هود:٤٢)، ويبيّن أنها صُنعت بعناية ووحي ربّاني: (**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**)(هود:٣٧)، فربّما لو نضدّنا الآيات التي ذُكرت فيها فلك نوح (ع) لاستطعنا حلّ معادلات هندسة تلك السفينة.

٤- إعطاء علامة على بدء الطوفان

لقد أُعطي المُنقذ علامة على بداية الطوفان، ففي الملحمة: "**. وضرب له الإله شمش موعداً معيّناً بقوله: حينما يُنزل الموكل بالعواصف في المساء مطر الهلاك فادخل في السفينة وأغلق بابها**"، وفي التوراة أُعلم بالموعد فقط ولم يُعطَ علامة على بدء الطوفان: "**لأني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة**"(تكوين ٧:١١) وفي القرآن الكريم: "**فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فاسلك فيها .**"(سورة هود ٤٠).

٥- أسباب الطوفان

تشابه الأسباب حيث تؤكّد كلّ من التوراة والأساطير على الأسباب الأخلاقية وراء حادثة الطوفان، فتذكرها الأساطير تلميحاً فنجد في ملحمة جلجامش أنّ (أيا)[١] يخاطب (إنليل) قائلاً: "**حمل المذنب ذنبه والآثم إثمه**"[٢]، وتذهب أسطورة "أتراحاسس" البابلية إلى أبعد من ذلك فتبيّن أنّ الشرّ انتشر وعمّ الفساد حتى صار الآباء يأكلون أبناءهم. وتفصّل مدوّنات التوراة أسباب الطوفان في سفر التكوين: "**إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتّخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، فقال الربّ لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر ـ كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً**"(التكوين ٤ :٦). أما القرآن فإنه يذكر أكثر من سبب للطوفان يلخّصها

---

[١] – اسم القوة المسؤولة عن الحياة (حيا) أيا نفس إنكي.

[٢] – سهيل قاشا، **التوراة البابلية**، ص١٥١ .

دعاء نوح (ع) على المكذّبين من قومه عندما يئس منهم حين قال: (**رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا• إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**)(نوح: ٢٥، ٢٦). فالمصادر كلها تتّفق على أن الطوفان كان لأسباب أخلاقية (بالمعنى الأعمّ للأخلاق)، وسوف يأتي تفصيله.

٦- وصف الطوفان

جاء في وصف الطوفان وعلّته في الأسطورة "**. ونزع الإله (إيراگال) الأعمدة، ثم أعقبه الإله (نينورتا) الذي فتق السدود**"[١]، لعل المقصود بالأعمدة (دعائم سدّ العالم الأسفل) الذي يحبس المياه الجوفية في الأرض، وقد ذكرنا أن (إيراگال) تعني (الجبل المتوقّد العظيم) فتكون بداية الطوفان-حسب الأسطورة- بسبب "نزع الأعمدة"، الذي نتج عن هزّات زلزالية فأدّت إلى خلخلة الأعمدة تلتها انفجارات بركانية أخرجت الغازات السوداء التي كانت محبوسة في باطن الأرض فكان خروجها بمثابة الإعلان عن بداية الطوفان، وكذلك في التوراة: "**في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء**"، تصف حدثين متتابعين (انفجار ينابيع الغمر العظيم)، و(انفتاح طاقات السماء) الثاني نتيجة للأول، وفي القرآن الكريم عبّر عن العلامة في آية، ووصف الطوفان في آية أخرى، ففوران التنور كان العلامة، ثم جاء وصفه: (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ• وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)(القمر:١١، ١٢)، فاتّفقت المصادر الثلاثة على الأسباب الطبيعية التي أدّت إلى حدوث الطوفان، فكانت المياه الجوفية هي الرافد الأساسي لمياه الطوفان وإن اختلفت التعابير.

٧- نهاية الطوفان

فقد جاء في الأسطورة: "**ثم هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان، وتطلّعت إلى الجو فوجدت السكون عاماً**"، وفي التوراة: "**وانسدّت ينابيع**

---

[١] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص١٥٩.

الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء" وفي القرآن: (**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ..**)(هود: ٤٤)، نلاحظ أن التوراة والقرآن يشتركان في أن نهاية الطوفان كانت بسبب توقّف مياه الأرض من الاندفاع (يا أرض ابلعي ماءك) حسب التعبير القرآني، و(انسدّت ينابيع الغمر) حسب التعبير التوراتي، ما يؤكّد أن الطوفان كانت بدايته من المياه الجوفية ومن فوهة الجبل، فإذا ما امتنعت عن الاندفاع فسوف تقلع السماء، أو يمتنع المطر من السماء، أما الأسطورة فتشترك معهما في أن الطوفان هدأ فجأة.

ب- أوجه الاختلاف بين المصادر الثلاثة

كما ذكرنا فسنسلط الضوء على أوجه الاختلاف فيما له علاقة بفكرة عالمية الطوفان مثل المساحة التي غمرتها المياه، وحجم الخسائر البشرية التي نجمت عن الطوفان (الناجون والمغرقون)، وقد ذُكرت هذه التفاصيل تصريحاً في الأسطورة، والتوراة ، أما بالنسبة للقرآن الكريم فإنه يصرّح مرّة بهذه التفاصيل ويلمّح ثانية، ويصمت ثالثة، فمثلاً يذكر الناجين والمغرقين عدّة مرّات وبتعابير مختلفة، ولكن لا يذكر مباشرةً الفترة الزمنية التي استغرقها الطوفان، ولا المساحة الجغرافية التي شملها – وإن كان بالإمكان استنباطها- وبما أننا نهدف من خلال هذا الفصل التوصّل إلى الإجابة على السؤال: هل أن الطوفان كان عالمياً، فسوف نكتفي باستعراض سريع لأوجه الاختلاف ذات العلاقة بمحور هذا الفصل ونُرجئ مناقشة المزيد من التفاصيل من قبيل أين حدث الطوفان وكيف حدث وما أسبابه للفصل الثاني.

١- المغرَقون والناجون

تختلف الأساطير في تحديد المغرقين بحسب اختلاف الترجمات وقد جاء على لسان "أتونفشتيم" : "**... ورأيت البشر جميعاً عادوا إلى طين**"[1]، فواضح من هذا

---

[1] – طه باقر ، **ملحمة جلجامش**، ص١٦١ .

التعبير أنه لا يعني كلّ من كان على وجه الأرض لأن القائل لا يمكن له أن يرى البشر جميعاً إلاّ من يليه في منطقته، فلم يقل: فعلمت أن البشر جميعاً عادوا إلى طين، بل قال (رأيت)، من هنا نستطيع القول أن الذين أُهلكوا بحسب هذه الترجمة هم الذين كانوا في المنطقة التي حدث فيها الطوفان.

وأمّا مدوّنات التوراة فإنّ بعض نصوصها تعبّر– حسب الظاهر – عن إهلاك أصاب كل من على وجه الأرض لمن لا يعلم وسْع العالَم ولا يرى العالَم إلاّ مختزلاً في بلدته أو جزيرته، فمثلاً نقرأ: "**فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض الناس والبهائم. كلّ من كان في أنفه نَسَمَة حياة على الأرض اليابسة مات، ومحا الله كلّ حي كان على وجه الأرض من النّاس والبهائم والدواب وطيور السماء أمحت من الأرض وبقي نوح والذين معه في السفينة وحدهم**"(تكوين ٧ : ٢٣)، و"**فهلك كلّ من له جسد يدبّ على الأرض**"(تكوين ٧ : ١٢)، ولكن ليس هناك نصّ صريح بأن الطوفان شمل كوكب الأرض وأهلك كلّ من عليه، ورغم أنّ تعبير "كل وجه الأرض" يوحي للفهم البسيط بأن المقصود منه كل الأرض، إلاّ أن استخدامه في التوراة لا يعبّر عن ذلك فنقرأ مثلاً: "**وكان الجوع على كل وجه الأرض. وفتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين**"(تكوين٤١ :٥٦)، هل فعلاً كان الجوع على كل وجه الأرض، أم القرية التي كانوا فيها فقط؟ ولماذا باع لمصريّي قريته فقط وترك العالم يتضوّر جوعاً؟! وكذلك: "**ضلّت غنمي في كلّ الجبال وعلى كلّ تلٍّ عالٍ. وعلى كل وجه الأرض تشتّتت غنمي**"(حزقيال ٦:٣٤)، فلا يمكن أن تضلّ أغنام رجل على كوكب الأرض، فقط تصوّر انتشارها وتشتّتها بين أقصى الشرق وأقصى الغرب، وتذكر التوراة (قصّة مفتراة) عن بنات لوط: وَقَالَت الْبِكْرُ للصَّغيرَة: "**أبُونَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَة كُلِّ الأَرْضِ**"(تكوين ١٩ :٣١) فلا نظنّها قصدت أن الأرض خلت من الرجال. وكذلك تعبير "**ومحا الله كل حي كان على وجه الأرض**" هنا لا يعني أن الطوفان أهلك كل من على كوكب الأرض، وإنما يُفهم المعنى المراد من السياق العام فمادام الحديث عن حادثة الطوفان فالمقصود أن المتواجدين في منطقة الحدث أُهلكوا بالطوفان، كما أن مدوّني التوراة عندما كتبوا حادثة الطوفان كان اهتمامهم مصبوباً على الحدث ومن أصابهم ولم تكن شعوب العالم ضمن اهتمامهم لكي يذكروا ما

حدث لهم من أثر الطوفان، تماماً كما تفعل وكالات الأنباء عندما تنقل خبر كارثة طبيعة فإنّها تتحدّث عن آثار الحدث في المنطقة التي حدث فيها وتصف حال الأقوام الذين أصابهم وتتجاهل الملايين من الناس الذين لا علاقة لهم بالحدث، فإذا قيل أن منطقة ما أُصيبت بزلزال مدمّر بحيث قتل كلّ الناس، يُفهم من ذلك أن كلّ الناس الذين كانوا في تلك المنطقة ماتوا.

أمّا القرآن فإنّه يؤكّد أن المنذرين من قوم نوح (ع) هم الذين أُغرقوا: (**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)(يونس: ٧٣) سواء كانوا من الظالمين أو الكافرين أو الخاطئين كما في: (**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ**)(الأعراف:٦٤)، و(**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**)(هود:٣٧)، و(**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً**)(الفرقان:٣٧) وكذلك: (**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧) وغيرها من الآيات التي تبيّن أن المغرقين هم من قوم نوح (ع).

والناجون حسب الأسطورة هم الذين ركبوا في السفينة "**أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي**"[1]، والتوراة كذلك أخبرت عمّن خرج منها بعد انتهاء الطوفان وهم زوجته، وأبناؤه الثلاثة وزوجاتهم: "**اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك**"(تكوين ٨ : ١٦)، وفي القرآن الكريم يعبّر عن الناجين من الطوفان بألفاظ مختلفة كلٌ له دلالته: (**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ**)(العنكبوت:١٥)، و(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)(الشعراء:١١٩)، و(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ**)(الأعراف: ٦٤)، فالناجون من الطوفان في منطقة الحدث – كما تبين الآيات السابقة – هم نوح (ع) ومن معه في الفلك.

إذن، ليس هناك في المصادر الثلاثة ما يثبت أن جميع أهل الأرض أُغرقوا، حتى نص التوراة الذي خصّ نوحاً وزوجته وأبناءه ونساءهم بالنجاة لا يُفهم منه أنه لم ينجُ أحدٌ غيرهم في العالم وإنما في منطقة الحدث فقط، والقرآن عبّر بوضوح أن المغرقين

---

[1] – طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص ١٥٨.

هـم الآثمـون المنـذَرون مـن قـوم نـوح (ع) فقـط ولـيس أهـل الأرض كلّهـم، والنـاجين في منطقة الحدث هم نوح (ع) ومن معه.

٢- المساحة التي شملها الطوفان:

نلاحـظ أن الألفـاظ الـتي اسـتُخدمت في الأسـطورة للتعـبير عـن المسـاحة الـتي غمرتها مياه الطوفان تختلف من ترجمة إلى أخرى نذكر منها تـرجمتين فقـط، الأولى للباحـث "صـامويل كريمـر" حيـث عبّـر عنـها بـ(اكتسـح الطوفـان الـبلاد)[١]، أي أن الطوفان أغرق البلاد التي وقع فيها الطوفان، و في ترجمة أخـرى لـنفس الـنص نقـرأ: (وانـداحت سـيول الطوفـان فـوق وجـه الأرض)[٢]، هـذا التعـبير يـوهم القـارئ بـأن المقصود من وجه الأرض هـو الكـرة الأرضـية بأكملـها وقـد تكـون هـذه الترجمـة أو مـا يماثلـها سـبباً لاعتقـاد الـبعض أن الطوفـان الـذي تتحـدّث عنـه الأسـاطير قـد اجتـاح الكرة الأرضية وغمرها، ولو أردنا الأخذ بهذا التعبير كمـا هـو مـذكور حرفيـاً فيمكننـا القول أن (وجه الأرض) هنا قد تعني الأفق الجغـرافي الـذي يمتـدّ إليـه بصـر مـن عبّـر عن أن الطوفان غطّى بلاده ومنطقته المشهودة بالنسبة له، وإلاّ فإنّ علينـا أن نفـترض أن ناقلي حدث الطوفـان كـانوا يمتلكـون وسـائل إعـلام أكثـر تطـوراً ممـا نمتلـك اليـوم بحيث علموا ورأوا ما أصاب كوكب الأرض! إنّ كمّية المياه الغزيرة التي غمـرت منطقـة الطوفـان أدّت إلى وصـولها للمنـاطق المجـاورة، ولكـن هـذا لا يعـني أن الطوفـان شمـل الأرض كلّها.

وقد عبّرت مدوّنات التوراة عن المساحة التي غمـرتها مياه الطوفان بتعابير مختلفة فمرة تقول: "**وحدث بعد السبعة الأيـام أن مياه الطوفـان صـارت علـى الأرض**"(تكوين ٧:١٠)، ومرة تقـول: "**وكـان الطوفـان أربعـين يومـاً علـى الأرض وتكـاثرت الميـاه ورفعـت الفلـك فـارتفع عـن الأرض، وتعـاظمت الميـاه كثـيراً جـداً علـى الأرض فتغطّـت جميـع الجبـال الشـامخة الـتي تحـت كـل السـماء، خمـس عشـرة ذراعـاً في الارتفـاع تعـاظمت**

(١) - صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص٢٥٧.

(٢) - سهيل قاشا، **التوراة البابلية**، ص١٣٢.

المياه فتغطت الجبال ـ وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً"(تكوين٧:١٧-٧:١٩)، ولقد أثبتنا بأدلة من التوراة نفسها أن لفظ (الأرض) أو (كل الأرض) أو (كل وجه الأرض) لا تعني الكرة الأرضية، وإذا كان تعبير "**ـ فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ**"(تكوين ٧ : ١٩) هو الموهم بأن المياه شملت الكرة الأرضية وغمرتها حتى أعلى جبل فيها، فنلاحظ أن "الجبال الشامخة" يُعبّر عنها في النسخة الإنجليزية بـ"التلال المرتفعة"[1]، بل إننا نقرأها في نسخة النص (العبري!) Har أوHarar[2] أي (الحرّة) أو (الحِرار)[3] (ونصّه يقول: كلّ قبة الحِرار تحت السماء كُسحت، بدلاً من: تغطّت جميع الجبال الشامخة)، وهناك الكثير من الكلمات والألفاظ المستخدمة في التوراة التي تعني شيئاً في لغة من كتبها، وتُترجم إلى معنى ثاني حسب فهم المترجم وثقافته، ثم تُفسّر إلى معنى ثالث حسب رأي المفسّر أو هواه.

وأمّا القرآن فإنه لم يتطرّق إلى المساحة التي شملها الطوفان صراحة ولكن هناك الكثير من الأدلة القرآنية التي تؤكّد على أن الطوفان كان محدوداً سنذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني لأن موضوعها خارج بحث المقارنة بين المصادر الثلاثة. إذن، فليس هناك دليل من المصادر الثلاثة يثبت أن الطوفان شمل كوكب الأرض. (انظر الجدول:١)

---

(1) – Gen7: 19 KJVA: and all the high hills, that were under the whole heaven, were covered.

(2) - Strong's Hebrew and Greek Dictionaries, 2022-2042.

(٣) – أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أُحرقت بالنار – **المنجد في اللغة والأعلام**، باب حرّ.

أوجه الشبه والاختلاف بين المصادر المختلفة (الجدول: ١)

أوجه الشبه	الأسطورة	التوراة	القرآن الكريم
العلم مسبقاً بوقوع الحادثة	إن الآلهة العظام قد حملتهم قلوبهم على إحداث الطوفان	اصْنَعْ لنَفْسكَ فُلْكا منْ خَشَب جُفْرٍ	وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ
وجود رمز بشري ومنقذ	أتونفشتيم، أتراحاسس	Noah	نوح (ع)
وصف السفينة	هدّم بيتك وابن سفينة	تجعل الفلك مساكن	
وجود علامة على بدء الطوفان	وضرب له الإله شمش موعداً معيّناً...	لأني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض	فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فاسلك فيها ..
أسباب التعرّض لعقوبة الإغراق	حمل المذنب ذنبه والآثم إثمه	دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً	إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً.
كيفية حدوث الطوفان	ونزع الإله (إيراگال) الأعمدة، ثم أعقبه الإله (نينورتا) الذي فتق السدود	انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء.	فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.
كيفية انتهاء الطوفان	هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان.	وانسدّت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء.	وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ.
المغرقون	ورأيت البشر جميعاً عادوا إلى طين.	فهلك كلّ من له جسد يدبّ على الأرض.	وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ.
الناجون	أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي	اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك.	فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.
المساحة التي شملتها مياه الطوفان	اكتسح الطوفان البلاد.	فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ	لم يذكر صراحة المساحة التي شملتها مياه الطوفان.

ج - ما تفرّدت به مدوّنات التوراة

بعد عقد المقارنة بين المصادر الثلاثة وجدنا أن هناك الكثير من أوجه الشبه بينها، واكتشفنا أن ترجمة وتعريب النصوص هي التي أوحت بأن الطوفان كان عالمياً سواء في الأسطورة أو التوراة، بينما عبّرت الآيات القرآنية الكريمة بوضوح أن الناجين والمغرقين كانوا من قوم نوح (ع)، وخلصنا إلى أن المصادر الثلاثة تتّفق على أن الطوفان كان محلياً، والمغرقون والناجون المتحدَّث عنهم هم من كانوا في منطقة الحدث وليس أهل الأرض ومن عليها. ثمّ وجدنا أن مدوّنات التوراة تفرّدت بجزئية لم نجد لها أثراً لا في الأسطورة ولا في القرآن الكريم. إن تفرّد نصّ التوراة بقصة تتّهم وتصوّر نبي الله نوحاً (ع) وتصفه بأوصاف قبيحة لهو دليل على أن هذه الخاتمة كانت من تلفيق مدوّني التوراة ليُحقّقوا مآربهم الخاصة كأن يُشرّعوا لأنفسهم ارتكاب المحارم والمنكرات مثل السكر بحجة أن نوحاً ارتكب هذا المحرّم، ويثبتوا لأنفسهم حقّاً عشائريًّا حيث الصراع البدويّ مع الكنعانيّين على قطع الأرض والسفوح والتلال والآبار، فلقّموا نوحاً لأنفسهم وعداً (كأبناء لسام) يعلون به على العشائر الساكنة جوارهم والمنازعين لها. فنلاحظ أنّه رغم أن مدوّنات التوراة نفسها لا تصرّح بأن الطوفان كان عالمياً إلاّ أن حادثة الطوفان أُسيء استغلالها لتخدم أغراض المنتفعين من الترويج لفكرة أن الطوفان كان عالمياً وأغرق كل من كان على كوكب الأرض. فما هي هذه الإضافة، وكيف وُظّفت لخدمة العنصرية اليهودية، هذا ما سنتناوله في مناقشتنا وتحليلنا للنص التوراتي لنبيّن بعد ذلك الآثار التي ترتّبت على ذلك.

❖ **نص ما بعد حادثة الطوفان في مدونة التوراة:**

"وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض، وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا

عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته، وقال مبارك الربّ إله سام وليكن كنعان عبداً لهم، ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم"(التكوين ٩ :١٨-٢٧).

ملاحظات على النص:

١- نلاحظ أنه في فقرة لا تتعدّى الستة أسطر يعرّف مدوّنو التوراة مرّتين أن حاماً أبو كنعان، رغم أنهم يذكرون ساماً ويافث دون أن يكنّوهما، فلو قالوا مثلاً: سام أبو لاوذ، ويافث أبو ماذي، لكان ذكر (حام أبو كنعان) طبيعياً، فما الخصوصية التي اختص بها حام دون أخويه إلاّ إذا كانوا يقصدون إقحام اسم كنعان هنا تمهيداً للعنه فيما بعد.

٢- زعموا أنّ نوحاً (ع) شرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه!! كيف أصبح نوح التقي النقي والذي تذكره التوراة نفسها بنعوت جليلة مثل: (كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله)، و(سار نوح مع الله)، كيف أصبح هذا البار بعد أن رأى آيات ربّه في الطوفان العظيم، وبعد أن نُجّي هو وأهله وذريّته من الكرب العظيم، كيف أصبح فجأة شارب خمر، لا يعي ما يفعل بحيث يتعرّى فيراه ابنه حام متعرياً، وحام هذا لا يملك من الفهم شيئاً رغم أنه حين ذاك كان قد بلغ من العمر ربما مائة عام أو أكثر (كما تذكر التوراة وكتب التاريخ) بحيث يفطن إلى ستر عورة أبيه دون حاجة لأن يخبر أخويه، فيُظهران مستوى من الورع عالياً بحيث يغطيان عورة أبيهما ووجهما إلى الوراء فلا يبصرانها، وبناء على ذلك يستحق كنعان اللعن من جدّه، وسام المباركة!

٣- عندما يستيقظ نوح (ع) من سكرته — حسب مدوّني التوراة - ويعلم ما فعل "حام" يقوم بلعن حفيده "كنعان ابن حام"، ويدعو عليه ليكون عبداً لأخوته مع أنه أولاً كان يجب أن يلعن من لم يستر عورته وهو حام هنا، وثانياً كان يجب أن يقول: "عبد العبيد يكون لأعمامه" لا لإخوته!! وأخيراً، لو افترضنا أن نوحاً شاء أن لا يُنزل اللعنة على حام بل أرادها أن تكون في نسله الممثل بابنه كنعان - كما يدّعي بعض اليهود -

وكنعان لم يكن إلاّ واحداً من أبناء حام الأربعة، فما هو مبرّر إنزال اللعنة بكنعان وحده من بين أبنائه الأربعة بسبب ذنب اقترفه أبوهم وهو والد الأربعة منهم!! كما جاء في مدونات التوراة: (**وَبَنُو حَامٍ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ**)(تكوين ١٠: ٦) الذي يبدو حسب الترتيب أنّه أصغرهم.

٤- لقد استثار لعن كنعان وتحمّله وزر أبيه حام بعض اليهود واعترضوا على ذلك فكان الردّ من مفسّري التوراة أنه ليس هناك ما يدل على أن لعن كنعان كان بسبب خطيئة أبيه حام، وإنما لخطأ ارتكبه هو، وإن نوحاً كنبيّ استطاع بروح النبوة أن يرى الاتجاهات الروحية لأولاده وأحفاده، فقال ما قاله من بركة ولعنة وهو يرى بالروح ما سيفعلونه!! فالسؤال إذاً بعد هذا التبرير: لماذا أُقحمت اللعنة هنا بالذات؟

٥- إن حالة نوح الخارج للتوّ من سكره – بحسب زعمهم - لا تحفظ له كرامة أو حرمة عند الله حتى يُستجاب له، فمن المفترض أن لعنه كنعان (ابن حام) وهو في حالة سكر يفقد كلامه كل قيمة، لا أن يكافأ باستجابة دعائه.

٦- إن لعن كنعان الذي لم يرتكب ذنباً، وإغلاق باب التوبة عنه وحرمانه منها يخالف نصوص التوراة نفسها التي تقول: "**النفس التي تُخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن، برّ البار يكون عليه وشرّ الشرير يكون عليه، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيى ولا يموت**"(حزقيال ١٨ : ٢٠، ٢١)، فإلى جانب التناقض بين أحداث القصة هناك تعارض بين أحكام التوراة وهذه الإضافة.

٧- كنعان يُلعن رغم غيابه عن مسرح الأحداث التي يتحدث عنها هذا النص، فيناله نصيب الأسد من الظلم المنسوب لنبي من أنبياء أولي العزم (ع)، وسام يُبارَك له، أما يافث فليفتح الله له فيسكن في مساكن سام!! لو سلّمنا تجاوزاً بأن حاماً أخطأ مع نوح (ع) فاستحقّ ابنه اللعن، فلماذا التمييز بين سام ويافث ليُختص سام بالمباركة الإلهية ويُتفضّل على يافث بأن يسكن في مساكن سام فقط، مع أنهما كلاهما سترا عورة أبيهما؟ وكان من العدل أن يتساوى سام ويافث عند أبيهما بالمباركة.

٨- حام دخل الخباء على أبيه وهو لا يعلم أنه متعرّي (بزعم النص التوراتي)، وبفعله هذا لم يخطئ، إنما المخطئ الحقيقي هما سام ويافث لأنهما كانا يعلمان ورغم ذلك دخلا عليه، فالتصرّف الصحيح هو عدم الدخول عليه في الخباء لا الدخول لستر عورته ووجههما إلى الوراء، ثم ما الدّاعي من دخولهما كلاهما لستر عورة أبيهما كان بالإمكان الاكتفاء بدخول أحدهما إن كان ولابدّ، أو عدم الدخول بالمرّة لأنّه في خبائه مستور.

٩- لقد بورك نوح (ع) وبنوه في التوراة: "**وبارك الله نوحا و بنيه وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الأرض**"(تكوين: ٩ : ١)، وقد أخذ ميثاقه معهم جميعاً (نوح وبنيه) بنص التوراة نفسها: "**. وكلّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً، وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم**"(تكوين ٩ : ٨ ، ٩)، فميثاق الله وبركته شملت بنيه الثلاثة ولم يُستثنَ حام، فيكون نوح بلعنه كنعان قد خالف أمر الله أو نقض ميثاقه مع الله!

١٠- إن التاريخ يثبت أن لعن كنعان ودعوته عليه بأن يكون عبد العبيد لأعمامه (سام ويافث) لم تتحقّق أبداً، ولم يصبح كنعان عبد العبيد لا لإخوته ولا لأعمامه، ونعني هنا بالكنعانيين الذين كانوا يسكنون في الجزيرة العربية.

١١- إن هذا النص التوراتي يفترض أن نوحاً (ع) بعد أن نُجّي هو وذريته قام بزرع الكروم وصنع الخمر وانشغل بالسكر، أي باختصار إن هذا النص يفترض أن الذي أُكرم بالنجاة من كارثة محتّمة وكانت عليه مسئولية إعادة بناء ما تمّ تدميره من أثر الطوفان ومواجهة تحدّيات الإصلاح ونشر الخير والفضيلة فقد إحساسه بالعالم وانغمس في شهوته!! فكان تصرّف نوح (ع) بعد انتهاء الطوفان مناقضاً لإرادة الله الذي فرض قوانين جديدة أكثر تفصيلاً وصرامة للبشرية من أجل تحصينها ضدّ الرذيلة ومنعها من السقوط ثانية، بل مناقضاً لأبده البديهيات.

تلك بعض الملاحظات على ما انفردت به مدوّنة التوراة في حادثة الطوفان والأخطاء التي وقع فيها مدوّنو التوراة في فقرة لا تزيد على ستة أسطر، كشفنا فيها عن مناقضتها لنصوص التوراة، وللحقائق التاريخية، ومنافاتها للأخلاق الإنسانية، ثم استُغلّت هذه القصة ليضعوا بذرة التمييز العرقي البغيض ويُرجعوا نسب اليهود إلى

سـام بـن نـوح (المبـارك)، ويـبرّروا لأنفسـهم السـكنى في أرض كنعـان (الملعـون، وعبـد العبيـد)، واضـطهاد الكنعـانيين، ثـم ابتـدعوا مصـطلح "السـاميّة" أو "العـرق السـامي" واختزلوه في اليهود فارتبط اسمهم به فلا تُذكر السامية إلاّ وتداعى اسم اليهود معها، ولا يجرؤ أحد على مساءلة الصهيونية العنصرية إلاّ واتُّهم بمعاداته للسامية، فما هـي حقيقة السامية؟ وهل حقاً أنّ اليهود هم الساميّون؟

السـاميّون هـم سـلالة سـام بـن نـوح عليـه السـلام، أمـا مصـطلح "السـامية" فقـد ابتدعـه اللغوي الألماني اليهـودي "شـلوتزر" في النصـف الثـاني مـن القـرن الثـامن عشـر (١٧٨١)، فمصـطلح "السـامية" إذاً مصـطلح يهـودي يتبـع التقسـيم المنسـوب "للتـوراة" للأجنـاس البشـرية إلى ثلاثـة أقسـام وهـي : السـاميون نسـبة إلى سـام بـن نـوح، والحاميون نسبة إلى حام بن نوح، واليافثيون نسبة إلى يافث بن نوح، وهو تقسيم على أساس سلالي المراد منه تمييز اليهود الذين نسبوا أنفسهم إليه دون وجه حقّ، والأدلـة على تفنيد تلك النظريـة (السـامية) ونسـبة اليهـود إليهـا كثيرة تناولهـا بعـض المؤرّخين المتـأخرين مثـل أحمـد داوود في كتابـه "العـرب والسـاميون والعبرانيـون وبنـو إسـرائيل واليهود" بالتحليل والنقد نذكر منها ما يتناسب مع نطاق هذا البحث:

١- إن الجزيـرة العربيـة مـوطن آدم الأول أُهـبط إليهـا وسـكن فيهـا هـو وذرّيتـه وبالتالي فهي موطن الأنبياء (ع)، ومهد الحضارات، وخزّان الشعوب الذي منه خرجت إلى العراق شرقاً، وبلاد الشام شمالاً، ومصر وادي النيل غرباً ومن هناك انتقلت إلى مناطق العالم المختلفة ونقلت معها علومها وثقافتها وحضاراتها، فأصل الشعوب كلها يبدأ من آدم وأبنائه، فهو عربي وأبناؤه كلهم عرب، واليهود[1] فـرع مـن هـذه الشـجرة العربيـة، أي أنهـم سـلالياً عـرب لأن اليهوديـة ليسـت عرقـاً ولا جنسـاً وإنمـا هـي ديانـة اعتنقها من شاء أن يعتنقها بغض النظر عن عرقه أو جنسه أو موطنه.

---

[1] - نعني باليهود هنا يهود بني إسرائيل لا يهود العالم الذين يعتبر أكثر من ٩٠٪ منهم من الخزر، واليهودية ليست الديانة التي جاء بها موسى بل صُنعت بعدئذٍ على يد الكهنة (راجع بحث: **اليهود وتوراة الكهنة**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية).

٢ – حدث الطوفان الذي يدّعي اليهود بأن السلالات بدأت منه في حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وسام من أبناء نوح (ع)، أي أنه جاء بعد أكثر من آلاف عديدة من السنين من التواجد العربي في المنطقة العربية الذي توجد آثاره التي تعود إلى قبل الألف التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد، فسام وأبناؤه فرع من فروع العروبة فلا يصح أن نخرجهم من السلالة العربية التي تشعّبت منها كل الشعوب والأمم، كما لا يمكن أن ننسب كلّ الأجداد (العرب) وأنسالهم إلى شجرة واحدة ستأتي بعد آلاف السنين هي (شجرة سام) بل العكس هو الصحيح، فالساميّون كلّهم عرب ولكن ليس كل العرب ساميّين، وقد عاشوا مع أشجار عربية عديدة في الجزيرة العربية والشام والعراق من السريان والآموريين وغيرهم ممن سبقهم تاريخياً.

٣ – أن ساماً كان له الكثير من الأبناء وتشعّبت من ذرّيته قبائل كثيرة لا يمكن حصرها في بني إسرائيل فقط، نذكر ما جاء ذكرهم في التوراة (تكوين ١٠ : ٢٢-٣١): "بنو سام عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام. وبنو آرام عوص وحول وجاثر وماش. وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر. ولعابر ولد ابنان. اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض. واسم أخيه يقطان. ويقطان ولد ألموداد وشالف وحضرموت ويارح. هدورام وأوزال ودقلة. وعوبال وأبيمايل وشبا. وأوفير وحويلة ويوباب. جميع هؤلاء بنو يقطان ... هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم.."[1] هؤلاء كلهم من سلالة سام وقد تشعّب من هؤلاء أنسال كثيرة وكثيرة جداً وما عشيرة بني إسرائيل إلاّ فرع صغير من هذه الشجرة لا تزيد بالمنطق الرياضي حسب ما سطّروه على واحد من ألف من منتسبي الساميّة، فالساميّون إذاً كُثر فلا يمكن أن نطلق مصطلح السامية على بني إسرائيل فقط؟

٤ – لم يتمّ العثور على هذه التسمية (السامية)، في أي من المكتشفات الآثارية التي امتلأت بها المنطقة العربية، وكل ما يكتشف في الأرض العربية من آثار يعود معظمها إلى آلاف السنين قبل أن يولد سام، كما إن تعبير (سامي) لم يرد له ذكر بين

---

[1] – الطبري، **تاريخ الطبري**، ج١، ص١٢٦.

مفردات اللغة الإغريقية أو في اللغة اللاتينية، ما يعني أن هذه التسمية ابتُدعت لأسباب خاصة عنصرية وسياسية وليس لها جذور تاريخية أو آثارية.

٥ - يُذكر إن موطن عشائر الكنعانيين الحامية في أرض غامد من شبه الجزيرة العربية[١]، كما جاء في تاريخ الطبري إن بني سام كانوا في ساتيدما في غرب الجزيرة العربية، "عن ابن عباس: .. فنزل بنو سام المجدل سرة الأرض وهو ما بين ساتيدما إلى البحر .."[٢]، وهذا يفنّد ما ذهب إليه بعض المؤرخين تماشياً مع التصور التوراتي إلى أن الجنس السامي هبط من أرمينيا على اعتبار أن الفرع السامي تحدّر من أرفكشاد الذي عاش في أرمينيا وهناك تكاثر الجنس البشري، أي أن-حسب تصورهم- العرق السامي انتشر من تركيا، فالساميون كما الحاميين واليافثيين كلهم عرب، وموطنهم الأول كان الجزيرة العربية.

٦ - إن الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الذرّية التي نُجّيت في الفلك تبيّن أن قريشاً وبني إسرائيل مشتركون سلالياً، فالمخاطَبون في الآية (**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**)(الإسراء:٣) هم بنو إسرائيل، والمعنيّون في الآية (**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)(يّس:٤١)[٣] هم أجيال الرسالة الخاتمة ومعاصروها، فمرّة يذكّر بني إسرائيل بأنّهم (ذرية من حمل مع نوح) ومرّة يذكّر قريشاً بأنّهم ممن حُملت أصولهم (ذرّيّتهم) في الفُلك المشحون، فكلا الفريقين: بنو إسرائيل وقريش من الذين نُجّوا من الطوفان، وهذا يدلّنا من جهة أخرى على الموقع الجغرافي الذي حصل فيه الطوفان.

---

[١] - أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ص ٦٨.

[٢] - الطبري، **تاريخ الطبري**، ج١، ص١٤٨.

[٣] - ذريتهم هنا بمعنى أصولهم.

الخلاصة

مما تقدّم نخلص إلى أن أصل الشعوب والأمم يرجع إلى أصل واحد وكلهم ينتسبون إلى آدم، وآدم عربي (بالمعنى الواسع للعربية لا الضيّق، العربيّة القديمة الأولى، لا العربية الخاصّة التي قال عنها نبي الله (ص) لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى) فكل السلالات إذاً فرع من هذه الشجرة العربية، ويؤكّد على ذلك بييرروسي في كتابه (مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب) رافضاً ادّعاء السامية بقوله: "هذه القوميات المسماة خدعة (بالساميات) والتي هي في الحقيقة عربية"[1]، ولقد أثبتنا أن المصادر الثلاثة لم تصرّح بعالمية الطوفان، فالسلالات إذاً لا تعود كلّها إلى أبناء نوح(ع)، إنما ابتدع اليهود هذا المصطلح ليؤسّسوا النظرية العرقية البغيضة بأن يفترضوا وجود عرق مميّز ينتهي نسبهم إليه فاختاروا ساماً من بين أبناء نوح لما وصل إليهم من أن سلالة النبوّات تنتهي إليه، وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فقسّموا الشعوب على أساس اللون فأضافوا إلى التمييز العرقي البغيض تمييزاً عنصرياً، فجعلوا اللون الأسود سمة الحاميين الذين يسكنون القارة الأفريقية، واللونين الأبيض والأصفر سمة اليافثيين وهم أصل الشعوب الهندو- أوروبية (حسب زعمهم)، واللون المتوسط بين هذين اللونين اختُصّ به الساميّون، وتلك تقسيمات لا يرضى بها الذوق الإنساني السليم، ولا الدين الخاتم الذي نعلم أنّ من صميم ثقافته أنّ الأفضلية للمتّقي كما أُثر عن رسول الله (ص): "أيّها النّاس ألا إن ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"[2]، وشعاره الأصيل: "كُلّنا لآدم"، ما يعني أن الناس كلها تعود إلى سلالة آدم لا إلى سلالة نوح، وصدق الله العظيم حين قال: (**وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**)(المؤمنون:٥٢).

فلم يكن الطوفان عالمياً، ولم يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط، ولم يكن المغرقون كلّ من على وجه الأرض؛ لم تصرّح بذلك الأساطير، ولا التوراة، ولا

---

[1] – بييرروسي، **مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب**، ص٤٢.

[2] – أحمد بن حنبل، **المسند**، ج٥، ص٤١١.

القرآن الكريم، ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالمياً، وتأسّس على ذلك أكذوبة تسمّى "الساميّة" وتاه الناس في وهم ولازالوا، كانت بدايته هوىً ومطمعاً فأصبح اليوم حقيقة وواقعًا . اليوم، تدفع الإنسانية ثمناً باهضاً لأجل حفنة من اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنّهم شعب الله المختار، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا، وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقّاً غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت الأمة متيقّظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحاً من الزمن لو احتكمت الأمّة إلى كتابها الخاتم متحرّرة من التفسير التوراتي الذي هيمن على فهمها وتفسيرها لآيات القرآن الكريم التي تناولت تفاصيل الحادثة.

الفصل الثاني

تفصيل حادثة الطوفان من القرآن

"وإذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين"

الرسول الأكرم (ص)

ذكرنا في الفصل الأول أننا سنتعامل مع القرآن الكريم كتعاملنا مع مصادر البحث الأخرى بحيادية وموضوعية رغم علمنا أنه الكتاب الخاتم، وإنه محفوظ من السماء، وأن فيه علم الأوّلين والآخرين، ثم ناقشنا أوجه الشبه والاختلاف بين المصادر الثلاثة في حادثة طوفان نوح (ع) فوجدنا أن المصادر الثلاثة تتّفق على أن الطوفان لم يكن عالمياً وتختلف في بعض التفاصيل التي أوعزناها إلى عدم الدّقة في الترجمة، وإلى تحميل النصوص نفسية المترجم أو المفسّر وثقافتهما وفهمهما، واكتشفنا أن مدوّنة التوراة تفرّدت بإضافة في نهاية حادثة الطوفان دون المصدرين الآخرين ما يدل على أنها وُضعت لخدمة أهداف خاصة فبيّنّا الغرض من دسّها والطريقة التي تمّ توظيفها لخدمة أغراض اليهود العنصرية والنتائج التي ترتّبت على ذلك. في هذا الفصل سنقوم بقراءة الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت الحادثة قراءة متمعّنة لنتعرّف على تفاصيلها كما ترسمها الآيات رسماً دقيقاً وتصوّرها تصويراً بليغاً لكي نجيب على مجموعة من الأسئلة لابدّ من الإجابة عليها لاستكمال محاور البحث، فبعد أن عرفنا أن المصادر لم تصرّح بعالمية الطوفان كان لابدّ من تحديد موقع حدوثه، ومن ثمّ حلّ إشكال اختلاف المصادر في تسمية المكان الذي استوت عليه السفينة، ومعرفة ما إذا كان الطوفان فيضاناً نهرياً، أم سيولاً ناجمة عن أمطار غزيرة، أم بسبب طغيان مياه البحر أم ماذا؟ وغيرها من الأسئلة نلخّصها كالتالي:

أوّلاً : ما هي أسباب الطوفان؟

ثانياً : هل كان الطوفان عالمياً؟

ثالثاً : من هم الناجون والمغرقون؟

رابعاً: أين حدث الطوفان؟

خامساً: كيف حدث الطوفان؟

وبما أن المصدرين الآخرين الذين اعتمدناهما في قراءة تفاصيل حادثة الطوفان قد يختلفان أو يتّفقان مع ما جاء في القرآن الكريم بشأن الأسئلة آنفة الذكر فسنستعرضها لنناقش أسباب الاختلاف إذا ما اختلفت مع الآيات القرآنية أو لندعم الاستنتاجات القرآنية فيما تتّفق فيه معها، وسوف تعترضنا أراء المفسّرين في بعض آيات حادثة الطوفان التي سنتطرّق إليها في هذا الفصل ما يحتّم علينا مناقشتها بما يتناسب مع مجال هذا الفصل ونُرجئ بعضها الآخر للفصل الثالث المخصص لمناقشة آراء المفسّرين.

أولاً- أسباب الطوفان

نعني بأسباب الطوفان هنا: لماذا استحق المنذَرون من قوم نوح الأخذ بعذاب الإغراق؟ لنفرّق بين هذه الأسباب وبين العلل الطبيعية للكارثة والتي سنناقشها في المحور الخامس من هذا الفصل.

ذكرنا إن المصادر الثلاثة تتّفق على أن أسباب الطوفان كانت أخلاقية فأسهبت التوراة وصرّحت، وأرمزت بعض الأساطير وأفصح بعضها الآخر، ونوّع القرآن الكريم بين الترميز، والتلميح، والتصريح، فما هو الذنب الذي ارتكبه قوم نوح (ع) فبدأت فيهم سُنّة الإهلاك؟

تشير ملحمة جلجامش إشارة سريعة في نهاية الحادثة إلى أسباب الأخذ بعذاب الإغراق في كلام يدور بين (أيا)[١] و(إنليل) قائلاً له: "**حمل المذنب ذنبه، والآثم إثمه**"[٢]، مبيّنة أن الذين أُهلكوا كان بسبب ما ارتكبوه من آثام، بينما تفصّل أسطورة

[١] - إله المياه العذبة (ابسو).

[٢] - سهيل قاشا، **التوراة البابلية**، ص١٥١.

"أتراخاسس"[1] البابلية أسباب الطوفان بعد أن تبيّن أن خلق الإنسان كان من أجل خدمة الآلهة (بتعبير الأسطورة) تعبيراً عن جعله خليفة في الأرض، أو كما تعبّر عنها ملحمة جلجامش (**بإنزال الملوكية من السماء إلى الأرض**)، ولكن – حسب ما جاء في أسطورة أتراحاسس - بعد أن كثر عددهم وعلا ضجيجهم (كناية عن الفوضى والفساد الذي كان متفشّياً فيهم) قرّر إبادتهم بإنزال الأوبئة والأمراض عليهم أوّلاً، ثم عادوا فتكاثروا وعلا ضجيجهم، فعاقبهم ثانية بإحلال المجاعة والجفاف عليهم لمدّة ست سنوات ما أدّى إلى أن يستفحل الفساد والشرّ حتى صارت الأسرة تتخلّص من أبنائها وبناتها بتركهم خارج المنزل يموتون جوعاً، أو تقوم ببيعهم لتتقاضى مبلغاً مالياً في مقابل ذلك، إلى أن وصل بهم الأمر أن يأكل الآباء أبناءهم!! نقرأ في الأسطورة:

"**فامتنعت الأمطار عن الهطول، ومُنعت مياه العمق (المياه العذبة) من التدفق،**

وتوقّفت مزارع "الحنطة" عن الإنتاج،

وحرس الإله (أيا) مزلاج البحر وعارضته سوية مع أعشابه[2]،

وفي العلى جعل الإله إدد (إله الرعد والمطر) مطره نزراً،

وفي الأسفل سدت الأنهار وأوقف تدفق الفيضان من "العمق"،

وأنقصت الحقول غلاّتها،

ومنعت الآلهة نيسابا فيض ثديها،

فأصبحت الحقول السوداء بيضاء،

---

[1] – تسمية نوح لدى البابليّين (أترا- حاسس) أي صاحب "أثرى إحساس" ويُترجمونه المتناهي في الحكمة، وقد تكون بمعنى عترة- خاشش أي مُخبّئ العترة أي المحتفظ بالنسل وحافظه، أو إطراء- خاصص: المخصوص بالحمد والإطراء كما في قوله تعالى: (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ).

[2] –"مزلاج البحر وعارضته" يرمزان إلى مقدرة هذا الإله في إطلاق أو منع تلك المياه. فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان في المراجع السماوية**، ص ٥٠.

وأنتجت الحقول الواسعة ملحاً،

وتمرّد رحم الأرض . . .

. . . وعندما حلّت السنة السادسة اتّخذوا من الابنة عشاء لهم،

واتخذوا من الابن غذاء لهم . . .

لم يشبعوا . . .

فالتهم كل جار جاره . . ."[(١)]

نلاحظ الحالة المزرية من الإفساد والهمجية التي وصل إليها الناس في تلك المنطقة قبل أن يأخذهم الطوفان وكيف كانوا يأكلون لحوم بعضهم سواءً مادّياً أو رمزياً في إشارة إلى سفك الدماء والإفساد الذي انتشر بينهم، وهو أحد أسباب تعرّضهم لعقوبة الإغراق.

وتذكر مدوّنات التوراة أسباباً أخرى فنقرأ في سفر التكوين: "**إنَ في الأرض طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلادا - هَؤُلاءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ**[(٢)]"(التكوين ٦ : ٤). جاء في تفسير هذا النص التوراتي طبقاً لرأي أحد القساوسة: "إنَّ المقصود بأبناء اللّه هم أبناء المؤمنين الذين تزوّجوا من بنات غير المؤمنين (بنات النَّاس) حيث ولدوا لهم أبناء من نوعية لها قوة شيطانية الذين يمكن أن يوصفوا بجبابرة الروح"[(٣)]، نلاحظ أنّ تعبير التوراة لا تورية فيه بل واضح صريح بأنَّ الإنسان العاقل (أبناء الربّانيّة) تزاوجوا مع إناث فئات منهيٍّ عنها، فئات غير ربّانيّة ناضبة من الرّوح، سواءً من الفاجرات أو من الهمجيّات، فأنجبوا أولاداً جبابرة، كما جاء في محتويات السفْر نقلاً عن مفسّري التوراة عن أسباب الطوفان: "إنَّ الغرض من الطوفان كان إقامة جنس بشري جديد

---

(١) - فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان في المراجع السماوية**، ص ٥٠.

(2) - Rick Meyers,E-Sword, Ver10.7,2000-2004, http://www.e-sword.net

(3) - http://www.aramnahraraim.org/Afrem_eus_tert_Arabic.htm.

أفضل، عن طريق إبادة الجنس القديم غير البشري منتشراً فيه"[1]، وقد جاء في بحث (الخلق الأوّل)[2]: "ونلحظ صريحاً تزاوج الإنسان بإناث البشر الهمج، ما يولّد هجناء جبّارين عصيّين على التربية. وأنّ نفخة الرّوح هي في الإنسان حصراً، وتنتقل إلى الهجائن البشريّين أيضاً، ونلحظ الترميز بأنّ الإنسان هو "ابن للربّ" لأنّ فيه نفخة الرّوح، والفتيات الهمجيّات هنّ بنات الناس (أيْ بشر بلا روح، هُنّ غير مخلّقات إنسانياً أو على أحسن التقدير هجينات)، فيمتزج المُخلَّق بغير المُخلَّق، وينتج هجيناً إنساناً، هو "الإنسان-الحيوان" وليس "الإنسان- الإنسان" وفي المرويّ (صورتُهم صُورة الآدميّين وقلوبهم قلوب الشياطين). وفي مرويّاتنا عن الفساد الذي انتشر بهذا التزاوج المشاع نراه في عصر "لَمَك" أب نوح فينقل المسعوديّ عن ذلك الزمن[3] (وقام بعده لَمَك، وكان في أيّامه كوائن واختلاطٌ في النسل، وتُوفّي .. وقام بعده نوح بن لمك (ع)، وقد كثر الفساد في الأرض)، وينقل الطبريّ (فلمّا أدرك نوح قال له لَمَك قد علمت أنّه لم يبق في هذا الموضع غيرنا فلا تستوحش ولا تتّبع الأمة الخاطئة)[4]، بل إنّ نسخة النصّ "العبري!" للتوراة بخلاف ترجمتها الإنجليزيّة أو العربيّة، تُصرّح في قولها أنّ سبب الطوفان هو "**أرّص ملأى همش**"(تك ٦ : ١١) أي أنّ الأرض ملأى من الهمج، فـ "الأرص" هي "الأرض" بإبدال الصاد ضاداً، و"همش" هي "همج" بإبدال الشين جيماً.

فالأسطورة تركّز على سفك الدماء، كسبب للتعرّض لعقوبة الإغراق، ومدوّنة التوراة تؤكّد على رذيلة التزاوج العشوائي بين الإنسان وإناث البشر الهمج كسبب آخر، والقرآن الكريم يعبّر عن رذيلة قوم نوح بألفاظ مختلفة فيسمّيها (خطيئة) مرة، ويصفهم بأنهم (قوم سَوء) أخرى، ويفصح عنها على لسان نوح (ع) بقوله إنهم إن تُركوا لن يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً، نفصّلها على النحو التالي:

---

[1] - محتويات السفر، المجلد الأول، شرح التكوين:

http://www.jesustoday.org/ketab/takwin/dars5-1takwin.htm

[2] - **الخلق الأول – كما بدأكم تعودون**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[3] - المسعودي، **مروج الذهب**، ج١، ص١٠.

[4] - الطبري، **تاريخ الطبريّ**، ج١، ص ١٠٨.

١ – ارتكاب الخطيئة كما في قوله تعالى: (**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**)(نوح:٢٥)، وقد استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ في وصف امرأة العزيز على لسان زوجها عندما اكتشف محاولتها التغرير بيوسف(ع) في قوله تعالى: (**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**)(يوسف:٢٩)، وقد جاء في تاريخ الطبري: عن ابن عباس قال: "لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا ببوذ[١]، ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد ... فجاءت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملأوا الأرض وهم الذين غرقوا أيام نوح"[٢]. يبدو مما تقدّم أن أبناء آدم استمرّوا في ارتكاب الرذيلة وعادوا إلى شريعة التزاوج العشوائي منذ آدم الأول حتى عهد نوح (ع) ولم يتراجعوا رغم إنذاره لهم.

٢ – أنهم كانوا قوم سَوء: (**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧)، وقد ورد تعبير (قوم سَوء) مرّتين في القرآن الكريم، مرّة في الآية مورد بحثنا، ومرة في وصف قوم لوط: (**وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**)(الأنبياء:٧٤)، لما كانوا يرتكبون من فاحشة، كما جاء لفظ (**امْرَأَ سَوْءٍ**) مرّة واحدة في استنكار بني إسرائيل على مريم (ع) عندما جاءتهم تحمل عيسى (ع) فبادروها بقولهم: (**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً**)(مريم:٢٨)، متّهمينها بارتكاب الفاحشة، ففي الموردين السالفين استخدمت لفظة (سَوء) تعبيراً عن ارتكاب الفاحشة ما يعني أن قوم نوح كانوا يمارسون الفاحشة.

٣ – التمادي في الفجور والكفر والإصرار عليه: (**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**)(نوح: ٢٥، ٢٦)، فقوم نوح الذين أُهلكوا بعذاب الإغراق كانوا كافرين ولم يكونوا مشركين ممّن يتّخذ مع الله أنداداً، أو ممّن يدعو مع الله إلهاً آخر، بل كانوا كافرين اتّخذوا غير الله أرباباً، وقد تبيّن ذلك من الآية التي ذكرناها آنفاً، ومن قول نوح (ع)

---

[١] – أحد قمم جبال السراة في الجزيرة العربية أُبدلت الباء نوناً فأصبحت جبل نُد أو نود.

[٢] – الطبري، **تاريخ الطبريّ**، ج ١، ص ١٠٨.

لابنه: (**وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ**)(هود: ٤٢)، فالكافرون هنا هم الذين كفروا برسالة نوح (ع) ودعوته وإنذاره وقالوا له تبجّحاً وتكذيباً واستهزاءً: (**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)(هود:٣٢)، فاستحقّوا عذاب الإغراق بسبب كفرهم وخطيئاتهم وظلمهم وفسادهم. قوم نوح (ع) كانوا يتعاهدون الكفر والفجور جيلاً بعد جيل، وقد جاء في الروايات: "أن نوحاً (ع) كان يُضرب ويُلف فيُلقى في بيته فيظنّون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم تارة أخرى، حتى جاءه مرة رجل معه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني، أنظر هذا الشيخ لا يغرنّك ... الخ"[1]، ما يدل على أنهم كانوا يربّون أبناءهم على الفجور والكفر، وصدق الله العظيم حين قال: (**وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى**)(النجم:٥٢) فالظلم والطغيان أخذ مداه فيهم فأصبحوا هم الأظلم والأطغى على الإطلاق فلا مجال لإعطائهم فرصة أخرى (لعلّهم يرجعون)، وقد أعلم الله نوحاً(ع) بأنّه لن يؤمن من قومه إلاّ من قد آمن.

فالقرآن — كما في التوراة والأسطورة - يبيّن أنّ الطوفان كان لأجل تصفية المنطقة من نوع من البشر غير جديرين بالحياة لأنّهم أفسدوا في الأرض في حين كان المؤمّل منهم أن يكونوا خلفاء الله على الأرض (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة:٣٠)، ولو تُركوا دون معاقبة على خطيئاتهم لانقرض الجنس الإنساني، ولطغى الجنس البشري (الهمجي في سلوكه، المفسد، الذي يسفك الدماء) وعمّ الفساد في الأرض، لذا جاء في الروايات أن نوحاً أبُ الإنسانية الثاني، وهو كذلك ولكن لا بالمعنى الذي فُسّر بأن البشرية أُبيدت بسبب الطوفان فبدأت السلالات من ذريّته، وإنما بمعنى أنه بفضله حُفظ الإنسان العاقل من أن يُمسخ ويعود إلى ما كان عليه من إفساد وسفك دماء، ولعلّه من هنا جاءت تسميته السومرية (أوتونفشتيم) أي حايط النفوس، أو حافظها، والتسمية البابلية (أتراخاسس) أي عترة-خاشش أو حافظ العترة.

فالمصادر الثلاثة تتّفق في أن سبب الطوفان كان لتصفية المنطقة من الآثمين، الجبابرة، المخالفين لقوانين الحياة الأسرية الطبيعية بارتكاب الفاحشة، وللأخلاق الإنسانية بسفك الدماء والإفساد والظلم، مع تفاوت في التصريح و الترميز.

---

[1] – القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص٤٣ .

ثانياً- عالميّة دعوة نوح

لم يعبّر القرآن الكريم صراحة عن المساحة التي شملتها مياه الطوفان، وإنما وصف الطوفان وأسبابه بتعابير مختلفة تبيّن أنّه كان حدثاً عظيماً، لكن لا يمكن الاستنتاج من مجموع الآيات القرآنية الكثيرة التي تحدثت عن الطوفان بأنّه استوعب الأرض جغرافياً أو بشرياً، ورغم ذلك فإن معظم المفسرين توصّلوا إلى أن الطوفان كان عالمياً بعد أن افترضوا أن دعوة نوح (ع) كانت عالمية وأنّه قد أنذر كل من كان على وجه الأرض في زمانه وبالتالي استحقّوا عقوبة الإهلاك بالطوفان لأنهم لم يستجيبوا لدعوته، فهل حقاً كانت دعوته (ع) عالمية لكي يُستدلّ بذلك على أن الطوفان كان عالمياً أم أنّه أُرسل إلى قومه خاصة؟ للإجابة على هذا السؤال نستقرئ الآيات الكريمة:

١- لقد تكرّرت الآية القرآنية الكريمة (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه**) أربع مرات في هود، الأعراف، المؤمنون والعنكبوت وهذا أوّل دليل على أن نوحاً أُرسل إلى قومه وليس للعالم.

٢- لو تتبّعنا الآيات التي تسرد الحوار بين نوح (ع) وقومه لوجدنا أنّه كان يخاطب قومه خاصة، وقد عبّرت الآيات عن ذلك بطرق مختلفة سنكتفي باستعراض بعضها طلباً للإيجاز: (**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ**)(هود:٢٨)، (**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً**)(هود: ٢٩)، و(**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**)(المؤمنون: ٢٣)، وقد تكرّرت في تسع آيات كريمات بصيغ مختلفة.

٣- هناك مجموعة من الآيات التي تبين أنّ قومه هم المعنيون بالرسالة (**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً**)(نوح:٥)، وأنّهم هم المكذّبون (**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ**)(الشعراء:١١٧)، وكل الألفاظ على اختلافها تؤكّد أن القضية بينه وبين قومه (**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**)(الشعراء:١٠٦، ١٠٧)، وتكرّر لفظ (**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِه**) مرّتين (هود ٢٤، والمؤمنون٢٧)، و(**قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِه**) (الأعراف:٦٠) مرّة واحدة ، وكل الضمائر في الآيات التي تتناول قضية نوح (ع) مع قومه - بلا استثناء - تؤكّد على أنّ دعوة نوح كانت خاصة لقومه.

٤- تكرّر لفظ (قوم نوح) إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم ليصفّهم في مصافّ الأقوام الأخرى كعاد وثمود وغيرهم، نورد بعضها: (**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ**)(التوبة:٧٠)، و(**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ**)(الحج:٤٢)، و(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ**)(غافر:٥)، فقوم نوح كغيرهم من الأقوام الأخرى عاشوا في منطقة جغرافية محددة، وتشابهوا مع غيرهم في تكذيب الرسل، والطغيان، والظلم فجرت عليهم السنن الطبيعية كما جرت على غيرهم، فلماذا اعتُبر الطوفان عالمياً دون غيره من العقوبات الإلهية.

٥- لم يؤمر نوح (ع) قط أن ينادي المرسل إليهم بـ(يا أيها الناس)، كما أُمر محمد- صاحب الرسالة العالمية- بذلك في أكثر من آية: (**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ**)(يونس:١٠٨) و(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**)(الحج:٤٩)، هذا مع العلم أنّه حتى صاحب الرسالة العالمية (ص) وخاتم الرسل لم تُبلّغ رسالته للعالم أجمع فكيف بمن أُرسل لقومه خاصة. إضافة إلى ما تقدّم فقد جاء في المرويات عن رسول الله (ص) قوله: "وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة"[1].

٦- عندما خاطب القرآن قوم هود الذين جاءوا بعد قوم نوح قال لهم: (**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**)(الأعراف:٦٩) ولم يقل من بعد العالمين، فاستخلف قوماً بقوم لا قوماً بالبشرية كلها، كما نلاحظ أن الخطاب الموجه إلى قوم هود (ع) خلفاء قوم نوح (ع) لا يختلف أبداً عن الخطاب الموجه إلى قوم صالح (ع) الذين جُعلوا خلفاء من بعد عاد، (**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ**)(الأعراف:٧٤)، ما يعني أنّ الحجم الجغرافي والسكاني لقوم هود كونه إحلالاً واستبدالاً عن "قوم نوح"، يُوازيه، فكم هي يا ترى "ديموغرافيّة" عاد وثمود؟!

٧- تحذير القرآن من عذاب قوم نوح لا يختلف عن تحذيره من عذاب الأقوام الأخرى: (**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**)(هود:٨٩)، و(**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ**

---

[1] - عبد بن حميد، **المسند**، ص٣٤٩. ومثله في "أحمد بن حنبل، **المسند**، ج٣، ص٣٠٤.

قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ)(إبراهيم: ٩)، والآيات التي تصف هلاك قوم صالح وهود وشعيب(ع) وغيرهم من الأنبياء لا تختلف عن الآيات التي تصف هلاك قوم نوح (ع) فالصيحة والرجفة والصاعقة والإغراق كانت سُبل إهلاك الأقوام المختلفة حسب اختلاف ذنوبهم ولكنها كلها كانت تقع على المكذّبين منهم فقط ولم يشذ قوم نوح عنهم كما تبيّن الآيات الكريمة: (**فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا**)(العنكبوت:٤٠). لو كانت عقوبة الطوفان عالمية لذكّرهم القرآن بها وقال: واذكروا كما أغرقنا آباءكم الأوّلين، أو كما أغرقنا العالمين من قبلكم، أو ما شابه، لا أنْ يُصفَّ العذاب الشامل والكبير جدّا –حسب الفرض– قرب العذاب "المجهري" جغرافياً. وقد عبّر الإنجيل عن عذاب قوم نوح (ع) بنفس الألفاظ التي عبّر عن عذاب قوم لوط (ع) في إنجيل لوقا حيث قال: "**وكما كان في أيام نوح كذلك يكون أيضًا في أيام ابن الإنسان كانوا يأكلون ويشربون ويزوّجون ويتزوّجون إلى اليوم الذي فيه دخل نوح الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع. كذلك أيضا كما كان في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويشترون ويبيعون ويغرسون ويبنون ولكن اليوم الذي فيه خرج لوط من سدوم أمطر نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع**"(لوقا ١٧ : ٢٦-٢٩).

٨- لو كانت دعوة نوح (ع) عالمية (بمعنى انتشارها في كل أنحاء العالم) فكيف نفهم الآيات التي تخاطب الرسول الخاتم (ص) وتُبيّن أنّه مرسل لأقوام لم يأتهم من نذير قبله مثل: (**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**)(السجدة:٣)، و(**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**)(يّس:٦)، مع أن محمداً (ص) بُعث في المنطقة التي بُعث فيها بقية الأنبياء (مكة) ورغم ذلك يصف من بُعث إليهم بأنهم (ما أتاهم من نذير)، أو (ما أُنذر آباؤهم)، ما يعنى أن الأنبياء كلهم بُعثوا لأقوامهم فقط، ومحمد (ص) الوحيد من بينهم من خوطب ليكون رسولاً للعالمين، فأرسل رسله إلى ملوك وأباطرة القبط والفرس والروم وغيرهم.

٩- لو كانت رسالته (ع) عالمية لصرّح القرآن بذلك ولو لمرّة واحدة كما جاء بشأن رسالة محمد (ص) بكل وضوح في قوله تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**)(سبأ:٢٨)، (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**)(الأنبياء:١٠٧)، و(**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ**

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)(الفرقان:١)، و(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**)(الأعراف:١٥٨) وغيرها من آيات تعبّر ضمناً عن أن محمداً (ص) كان الوحيد صاحب الرسالة العالمية نذكر واحدة منها فقط: (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**)(النساء:٤١) وهناك المزيد.

١٠- اعتبر المفسرون دعوة نوح (ع) عالمية بناء على أنه أحد أنبياء أولي العزم (ع)، كما جاء في تفسير الميزان للآية الكريمة: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**)(المؤمنون:٢٣)، "أنّه أول أولي العزم من الرسل أصحاب الكتب والشرائع المبعوثين إلى عامة البشر والناهضين للتوحيد ونفي الشرك فالمراد بقومه أمته وأهل عصره عامة"[1]. أوّلاً، لا يمكن أن يكون مراد الله من (قومه) أمته وأهل عصره عامة فذلك تعميم لا مبرّر له وإنّما أراد بقومه قومه الذين بُعث لهم فأنذرهم وبشّرهم، وثانياً، أنبياء أولي العزم هم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى ومحمد، وأحد أسباب تمييّزهم عن غيرهم من الأنبياء هو صبرهم على أذى أقوامهم لتأدية رسالتهم لا عالميّة دعوتهم (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**)(الأحقاف:٣٥)، ولقد ذكرنا آنفاً مجموعة من الأدلة القرآنية التي تثبت أن دعوة نوح (ع) — وهو أحدهم- لم تكن عالميّة، كلّ تلك الأدلة تصدق على بقية أنبياء أولي العزم عدا رسول الله (ص). إن قولنا عن دعوة نبي من الأنبياء أنّها خاصّة لقومه (أي محليّة لا عالميّة) لا يمنع أنْ تنطلق الدعوة بعد موت ذاك النبي لنشرها في الآفاق من قبل معتنقيها فالدين لا جغرافية له، إنما نعني بذلك أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا مكلّفين بإيصال دعوتهم إلى كل أنحاء العالم. والغريب أنّ اثنين من أنبياء أولي العزم - موسى وعيسى (ع)- أُرسلا لعشيرة بني إسرائيل (خاصة)، فبعد أن انحرفوا بالمسيرة الإنسانية - من بعد موسى (ع) - إلى أدنى المستويات من نقض العهد، وطمس الحقائق، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتكذيب الأنبياء وقتلهم والتشنيع بهم، بعث الله لهم عيسى (ع) ليعيد التوازن إلى المجتمع الإنساني، كما تبيّن الآيات القرآنية ذلك: (**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**)(الصف:٦)، و(**وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي**

[1] - الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٥، ص٢٧.

وَرَبَّكُمْ)(المائدة:٧٢)، و(**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ* وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ**)(آل عمران: ٤٨، ٤٩)، وقد جاء في إنجيل متّى على لسان عيسى (ع): "**ـ لم أُرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة**"(متى١٥: ٢٤).

١١- هناك من يستدل على شمولية الطوفان بدعاء نوح (ع): (**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**)(نوح:٢٦) بدليل استخدام كلمة الأرض، مع أننا لو تتبّعنا كلمة الأرض في القرآن لوجدنا أنّها لا تعني دائماً الكرة الأرضية، فكم ذُكرت كلمة الأرض في القرآن مع الأنبياء وأقوامهم ويراد بها أوطانهم أو مناطق سكناهم أو نطاق حكمهم أو أقل من ذلك أو أكثر: (**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**)(الإسراء:٧٦) أمن كل الأرض أم من وطنه فقط؟ وإلى أين سيستفزونه ويُخرجونه أإلى القمر أو المريخ؟! و(**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**)(الجمعة:١٠) فليس المطلوب منهم الانتشار في كل الأرض حتماً، و(**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ**)(يوسف:٥٥) وهل مُلّك يوسف خزائن كوكب الأرض؟ أم خزائن غلاّت قرية زراعية تُدعى "مصر"(مصريم)، و(**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ**)(المائدة:٣١) فكم مساحة الأرض التي يحتاجها ليدفن فيها غراباً؟ وغيرها الكثير. لو شاء القرآن أن يبيّن أن من أُهلك من الطوفان هم "من في الأرض جميعاً" لأتى بها صريحة واضحة كما في الآية الكريمة: (**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**)(المائدة: ١٧)، وفي قوله: (**إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**)(إبراهيم:٨)، فالأرض إذاً هنا لا تعني "كوكب الأرض" وإنما مساحة جغرافية معيّنة تُفهم حسب سياق الآيات.

١٢- استدلّ بعض المفسرين على عالميّة الطوفان بالآية القرآنية الكريمة: (**احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**)(هود:٤٠)، فقد جاء في أحد التفاسير: "فلو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض لم يكن حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان اثنين"[1]، بتمعّن قليل في آيتي "حمل الزوجين" وهما :(**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ**)(هود:٤٠)،

---

[1] - الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٠، ص ٢٦٤.

و(**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ**)(المؤمنون:٢٧) يتضح ببداهة لا غبار عليها، أنّ حمل (سلّك) الحيوانات في الفلك جاء بتوصية تُباشر توقيتاً بعد فوران التنور لا قبله، ما يعني أنّ عليه أنْ يتخلى عن كل ما يملك من مواشي وأنعام وطيور ويحمل فقط "زوجين اثنين"، وبهذا يُفهم سرّ التأكيد على "اثنين"، فلا يحتمل الوقت لإنجاء كلّ المتاع، وسرعة الحمل وتوقيته ترينا نوعية الحيوانات التي أُمر بحملها معه في الفلك. كذلك نستوحي من قوله تعالى (واسلك فيها) أن الحيوانات المراد حملها معه هي الحيوانات المستأنسة فقط مما كان في بيئته للحفاظ على نسلها، لأن كلمة (اسلك) تعني –حسب الراغب الإصفهاني– النفاذ في الطريق[1]، كما في قوله تعالى (**ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**)(النحل:٦٩)، و(**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ**)(القصص:٣٢) التي تتضمّن معنى السهولة واليسر، وقد استُخدمت هنا لتعبّر عن سهولة إدخالهم في الفلك. إذن، يُفهم من ذلك أن المطلوب من نوح (ع) أن يحمل زوجين اثنين (فقط) مما يملك من حيوانات، مع العلم أن زوجين تعني اثنين وليس أربعة كما في قوله تعالى: (**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ـ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ**)(الأنعام:١٤٣-١٤٤) أي أنه أُمر أن يحمل معه اثنين فقط من كل صنف من الحيوانات: ذكراً وأنثى ليباشروا بها حياتهم بعد أن ينتهي الطوفان ويهبطوا في أرض جدباء. وللقارئ أن يتخيّل حال نوح (ع) وقد رأى فوران التنور – علامة بدء الطوفان – هذا الحدث الجلل وهو يحاول أن يحمل معه من كل حيوان موجود على وجه الأرض زوجين فيضطر أن يبحث عنها ويفحصها لكي يتأكّد أنّه أخذ واحداً من كل جنس منها، ناهيك أنّ الحيوانات تجفل وتهرب وتفزع وتفرّ في الزلازل والبراكين والفيضانات ولا يُمكنه إلا قيادة المربوط منها والمستأنس.

فيما تقدّم أكثر من خمسين آية قرآنية تؤكّد بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أن دعوة نوح (ع) لم تكن عالميّة، والقوم كانوا محليّين، والمكان الذي حدث فيه الطوفان كان بقعة جغرافية محدودة، فالذي أُهلك هم مرتكبو الخطايا والظالمون والفجار من

---

[1] – الراغب الإصفهاني، **مفردات غريب القرآن**، ص ٢٣٩.

قومه، وتلك حقيقة أثبتناها وجئنا بها في بداية مناقشتنا للآيات التي تناولت حادثة الطوفان لتؤخذ بعين الاعتبار وتُستصحب كلما قُرأت الآيات التي تعبّر عن الناجين والمغرقين من قوم نوح (ع) — محور نقاشنا الثاني – فعندما نقرأ (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧) نعلم أنّ المعنيّين في هذه الآية هم المكذّبون من قوم نوح (ع) فقط وليس العالم أجمع، وكذلك إذا قرأنا (**ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ**)(الشعراء:١٢٠)، أو (**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**)(الصافات:٧٧)، وغيرها من الآيات التي استدلّ بها المفسرون على عالميّة الطوفان مع العلم أنّها تخصّ المكذّبين من قوم نوح (ع)، وفيما يلي تعريف بالناجين والمغرقين في الطوفان بتتبّع الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت تلك الفئتين من خلال الإجابة على السؤال الثالث.

ثالثاً- الناجون والمغرقون

رغم أننا بيّنا في الفصل الأوّل أنّ الناجين والمغرقين المذكورين في الطوفان – حسب المصادر الثلاثة- هم الذين كانوا متواجدين في منطقة الحدث، ولكن تفسير أهل الكتاب لحادثة الطوفان ألقى بظلاله على فهم المسلمين لمجموعة كبيرة من الآيات القرآنية فأُسيء فهم بعضها، فأصبحت (**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**) تعني أنه لم ينجُ من أهل الأرض إلاّ ذريّة نوح، و(**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**) تعني أنّ الطوفان أغرق الجميع ولم يبقَ على وجه الأرض أحداً، واستعصى فهم البعض الآخر واختلط المعنى فلم يُلتفت للفرق بين " **أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ**" و "أمم معك"، وغيرها فكان لابدّ من تخصيص مساحة من هذا الفصل لتفصيلها ومناقشتها في سياقها العام وبعيداً عن الاعتقاد السائد بعالمية الطوفان.

أ — الناجون من الطوفان

هناك مجموعة من الآيات الصريحة التي تبيّن أن الناجين من الطوفان ممّن كان في منطقة الحدث هم نوح (ع) وذريّته وأهله وآخرون ممّن معه، كما في قوله تعالى

(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ**)(العنكبوت:١٥)، و(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)(الشعراء:١١٩)، و(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ**)(الأعراف: ٦٤)، ذكرناها في الفصل الأول باختصار شديد وبما أنّ معرفة الناجين من الطوفان يعيننا على معرفة حجم الطوفان، وبما أنّ هناك المزيد من الآيات التي تصنّف فئات الناجين ومواصفاتهم ولكن أُغفل عنها أو أُسيء فهمها سنفصّلها هنا ليمكننا معرفة ما إذا كان الناجون هم نوحاً وذريّته ومن معه فقط أو أن هناك فئات أخرى نجت من الطوفان:

١- (**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**)(هود:٤٨):

فصّلت سورة هود قصة النبي نوح (ع) في الآيات من ٢٤ إلى ٤٨ تفصيلاً بليغاً ودقيقاً منذ بداية دعوته لقومه، واستهزائهم به، وازدرائهم بمن آمن معه، ثم تحدّيهم ومطالبتهم بالعذاب الذي أنذرهم به، فالتيئيس من زيادة عدد المؤمنين به والأمر ببناء السفينة والإعلام بعلامة الطوفان، فنداؤه لابنه بأن يركب معه، فوصف للطوفان حتى انتهائه، ثم خُتمت تلك المجموعة من الآيات بالآية مورد بحثنا مشيرة إلى الناجين من الطوفان وصنّفتهم إلى فئتين: الأولى هي نوح (ع) وأمم ممن معه وهم الذين خصّهم بسلام منه وبركات، والثانية هي أمم ممن معه سيمتعهم ثم يمسهم منه عذاب أليم، وعليه نستنتج أموراً منها:

(١)- أنّ الذي مع نوح ليس أبناءه فقط، بل هناك أممٌ معه وأممٌ، أي جماعات لها وجهة أو صفات مشتركة، فنلاحظ أن السلام والبركات خُصّ بها فئة ممّن معه وليس كلّ من كان معه فقال: (وعلى أمم ممّن معك) فلو كان من معه من "**أمم**" كلّها مؤمنة لقيل له (وعلى أممٍ معك) بدون "**ممّن**" التي هي مكوّنة من: "مِنْ" التبعيضيّة و "مَنْ" الموصولة (أي من الذين معك)، فيصبح مجموع ما معه في الفلك هم (أمماً معه)، فهناك فئة من الذين هبطوا معه شملها السلام والبركات وفئة منهم لمْ يشملها السلام والبركة. ولو جمعنا هذه الآية مع آخر سورة نوح (**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً**)(نوح:٢٨) وافترضنا أن بيته هنا هو الفلك المشحون – كما جاء في التوراة والأسطورة والمرويّات

– وأن هذا الدعاء كان حين الإغراق الذي كان مستمراً لأيّام أو أسابيع، فلو كان كلّ من دخل بيته مؤمناً فعلاً، لكانت كلمة "مؤمناً" هنا زائدة، ولكن بما أنّه خصّ بعض من دخل بيته بطلب الغفران دون البعض الآخر فهذا يعني أن هناك من دخل بيته مؤمناً، ومن دخله لاجئاً وليس مؤمناً (طبعاً لا عدوّاً ظالماً فالظالمون كلّهم أُغرقوا)، ولكن من البسطاء الضعفاء غير المؤمنين الذين وجدوا طريقهم إلى الفلك والتجأوا به، هؤلاء لمْ يُؤمر نوح بحملهم، ولمْ يُؤمر بعدم ذلك. فالذين دخلوا الفلك من الناس جماعتان: المؤمنون؛ وقد أُمِر نوح بحملهم، فحصلوا على النجاة، والدعاء بالمغفرة، وجماعة ليست مؤمنة (ولكنها ليست كافرة ولا ظالمة) دخلت الفلك بالتعلّق والاستجارة فأركبهم كما حاول إركاب ابنه ولم يُفلح، هؤلاء حصلوا النجاة فقط دون الاستغفار. من مجموع الآيتين نستنتج أن هناك فئتين – ممن كان في منطقة الحدث – نجت: فئة صُنّفت من المؤمنين المستغفَر لهم ممّن دخل معه الفلك وهي التي شملها السلام والبركات حال الهبوط، وفئة من غير المؤمنين (ولكن لا الظالمين ولا الكافرين) ممّن لم يدخلوا ضمن المستغفَر لهم ولم يشملهم السلام والبركة حال الهبوط، فيخرج بهذا التبعيض حال الهبوط من سلام الله وبركاته مَنْ أُخرج من استغفار نوح حال الركوب.

(٢)– وكذلك الآية (**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**)(الإسراء:٣)، والآية (**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا**)(مريم:٥٨)، تُبيّن أن الذين نُجّوا من الطوفان ليسوا زوجته وأبناءه وزوجاتهم فقط، فالأولى تبيّن أن المخاطبين هم من (ذرّية من حُمل مع نوح) أي أنّ هناك آخرين حُملوا مع نوح (ع) عدا عن ذريّته وإلاّ لقال (ذرية نوح)، والثانية تُبيّن أنّ الأنبياء بعضهم من (ذرّية من حُمل مع نوح) وليس من ذريته مباشرة، أي أنّه حمل معه آخرين، وقد أوجز الإمام الباقر(ع) هذا المعنى في رواية مختصرة وباستدلال قرآني بسيط ومنطقي: (الحق والنبوة والكتاب والإيمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح (ع)، قال الله عزّ وجلّ: "احمل فيها من كل ..

ومن آمن"، وقال: "ذرية من حملنا مع نوح"[1]، وهذا بحد ذاته ينسف ادّعاء مفسّري التوراة بأن السلالة البشرية من نوح، وينفي التشعيب السامي والحامي واليافثي.

(٣)- أنّ هناك جماعات أخرى أيضاً غير مؤمنة وهي كثيرة قد نجت من الطوفان سواءً لوجود وسائل لديها، أو لأنّها خارج مجال الحدث المدمّر، لكنّ تلك الجماعات كلّها ليست من فئة المنذَرين لأن المنذَرين أُغرقوا لقوله تعالى: (**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)(يونس:٧٣)، وتلك الجماعات يتوعدها سبحانه بالعذاب وعدم السلام وذهاب البركات التي ترفل فيها إن سلكت سبيل المجرمين. فالمنذَرون أُهلكوا جميعاً لأنّهم هم المقصودون فلا مفرّ لهم و(**لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّه**)(هود:٤٣) ولا يدخلون ضمن الاستثناء (**إِلَّا مَنْ رَحِمَ**)، بل هم ممن سبق عليهم القول في قوله تعالى: (**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ**)(هود:٣٧)، ولكن وبما أنّ الطوفان أخذ رقعة جغرافية أكبر من مساحة القوم المنذَرين المراد إهلاكهم عيناً، فإن من الطبيعي أن يكون لساكني المناطق البعيدة فرصة للنجاة أكبر لأنّها لم تُباغت، مع افتراض أن خبر توقّع طوفان عظيم قد انتشر خارج نطاق قوم نوح وخاصة أنّه(ع) كان يستعد لهذا الطوفان ببناء فلك عظيم ذي هندسة غريبة، فمن صدّق الخبر واستعدّ للحدث أُنجي سواء كان من المؤمنين أو من غيرهم، ونجاتهم بفلك أو بغيره كما تقوم أرصاد الدولة حديثاً بإشعار سكان منطقتها والمناطق القريبة بحدوث زلزال أو بركان فيهلك المؤمن والكافر إن كذّب الخبر، وينجو كلاهما إنْ صدّقا الخبر، أمّا (المنذَرون) في منطقة نوح فعنادهم ومكابرتهم وشقاقهم جعلهم يُكذّبون الخبر فبوغتوا وأُهلكوا وهذا دليل على قربهم من (التنور)، وأما (المحذَّرون) من المناطق المجاورة فنجاتهم كانت بحسب استعدادهم وقربهم أو بعدهم من قلب الحدث. وهذا ينسف عالمية دعوة نوح، بمعنى أنّ إنذار نوح لم يكن له قابلية الإيصال العالمي.

٢- (**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**)(هود:٤٠):

قد تتداعى إلى ذهن القارئ الآية الكريمة: (**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**)(هود:٤٠) فتُشكل عليه متوهّماً أن هناك تعارضاً بين هذه الآية والآية: (**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ**

[1] - المجلسي، **بحار الأنوار**، ج١١، ص٣١٠.

بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(هود:٤٨) بدعوى أنّ القرآن نفسه يؤكّد على أنّه لم يؤمن مع نوح (ع) إلا قليل، فلا يوجد تعارض بين الآيتين وذلك لسببين، الأول: إن كلمة "قليل" نسبية، فلو افترضنا أن عدد قوم نوح كان مائة ألف مثلاً وآمن معه ألف لصدق عليهم لفظ "قليل" لأن نسبتهم بذلك تكون ١٪، ولو افترضنا أنّه آمن معه مائة شخص فقط (هذا الرقم قريب من الرقم الذي يعتمده المفسّرون وهو ثمانون) كذلك لكان قليلاً جداً لأنه سيكون بنسبة ٠,٠١٪، ولو رجعنا لاستخدام القرآن للفظ (إلا قليل) لوجدنا في قوله تعالى (**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**)(التوبة:٣٨) دليل على نسبية كلمة (قليل)، فمتاع الحياة الدنيا في واقع الأمر ليس قليلاً ولكنه سُمّي "قليل" إذا ما قيس بمقاييس الآخرة، الثاني: (آمن) تأتي في مقابل (كذّب)، فالذين آمنوا به في مقابل الذين كذّبوا وكفروا به قليل، إذاً فقد نُجّي معه (أمم) من الفئتين ولكن نسبة الذين آمنوا معه إلى الذين كفروا به قليل.

وقد بيّنت آيات السنن الربّانية في الإهلاك الحاكمة على كلّ آيات أحداث الصراع بين الرسل وأقوامهم، أنّ النّاجين في كلّ "قرية أو قوم أو قرن" من الذين تمّ تدميرهم كانوا (قليل)، والقلّة هذه إنّما بموازاة الكثرة العددية للمجرمين والمفسدين، كما نقول اليوم عن طائفة ما بأنّها أقلّية، كطائفة المسلمين في الهند وقد تصل إلى ٣٠٠ مليون شخص، فالقلّة والكثرة هنا باعتبار النسبة بين المتغايرَين، فإذا كان المفسدون كثيرين، والمصلحون قليلين لا ينهضون لصدّهم، ولا مجال لتعديل الميزان بالتدافع، بل يُوشك أن يهلك أو يضمحلّ الصالحون بالمرّة، تهجم السنة الربانية التي تقتضي إهلاك المفسدين، أمّا لو فُسح المجال للتدافع، والصراع، وتكافأت الكفّتان، فالسنّة لا تتدخّل، بل تُراقب مُجاهدة الصالحين لأجل التغيير، وهذا ما حصل مع النبيّ الخاتم (ص)، وهو الوضع الطبيعي الذي بيّنته نهاية الطوفان (وجود أمم مباركة، وأمم ممتّعة، كلاهما متعايشان يتدافعان فكراً وسلوكاً)، فقوله تعالى (**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**)(هود:١١٦)، هي السنة الحاكمة في الإهلاك والإنجاء، فالقليل الصالح لمْ يعد يُغني ويُوشك على الإبادة، ما يستدعي

التدخّل الإلهي بإعادة الموازين، فعليه لا نرى صراعاً إلاّ محلّياً بين نوح وقومه، يسخرون منه، ويهدّدونه بالقتل والرجم والإبعاد هو ومن معه، فلما آل الوضع إلى القضاء على المؤمنين كما عبّر هو (ع) قائلا (إني مغلوب) هنالك انتصرت السنّة الربانية له، ففتحت أبواب السماء لإغراق المعتدي. فلا تعارض بين الآية الكريمة التي تبيّن أنّه نُجّيّ مع نوح أمم وأمم (أي فئات ومجموعات مختلفة)، وتلك التي تقول أنّه لم يؤمن معه إلاّ قليل، فالذين آمنوا معه فعلاً قليلون، والذين نُجّوا كانوا أمماً مختلفة.

٣- (**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)(يونس:٧٣):

هذه الآية تُبيّن أنّ نوحاً ومن نجى معه في الفلك اختُصوا بأنّهم جُعلوا خلائف بمعنى أنهم ورّثوا المجال الحيوي الذي كان للظالمين بعد إهلاك ملاّك تلك الأنحاء، كما وعد سبحانه أنبياءه والمؤمنين بهم وعلى رأسهم بل وأولهم نوح ومن معه من قوله في سورة إبراهيم (**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ* وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ -**)(إبراهيم:٩ -١٤)، فاستخلاف الخلائف هنا يعني أنّهم أُسكنوا مساكنهم وجُعلوا خلائف في تلك المنطقة بعد أن أُغرق الظالمون الذين أفسدوا فيها.

٤- (**وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**)(الصافات: ٧٦،٧٧):

الآيات (٧٥-٨٢) من سورة الصافات تتحدّث عمّا اختُص به نوح (ع) كجزاء له (ع) على ما أخلص في سبيل إيصال رسالته فكان بقاء الذرّية في موقع سكناها السابق وعدم الاضطرار للهجرة بعد تلك الكارثة العظيمة إحدى النعم التي تذكرها الآيات في سياق مجموعة أخرى من النعم ابتداء من استجابة الدعاء وانتهاء بإغراق الأعداء: (**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ* سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا**

الْآخَرِينَ)(الصافات:٧٥-٨٢)، نلاحظ أنّ نوحاً (ع) وأهله اختّصوا بالنجاة من الكرب العظيم، وقد ظن البعض أن الطوفان هو الكرب العظيم الذي نُجّي منه نوح (ع) وأهله، ولكنه ليس كذلك، لأن الطوفان كان سبب نجاته وأهله ومن آمن معه، بل هو نوعاً ما تحقيق واستجابة لدعائه بعدم ترك ديّارٍ من الكافرين في تلك الأرض، فقوله (ع) لمن معه وهو يرى فوران التنّور: (**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّه**)(هود:٤١)، وأنّه بمجرّد أنْ يستوي راكباً عليها يقول (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)(المؤمنون:٢٨) لا يدلّ على أن الطوفان كان كرباً لنوح (ع) ومن معه، بل هو النجاة من الكرب، حتى أنه من شدّة إيمانه وأمانه كان يطمع أنْ يُركِب ابنه العاق، ويدعو الله لإنجائه، فما من كرب على نوح وأهله بعد انبعاث الطوفان، إنما جاء الطوفان ليكون رافع الكرب، فالمقصود من الكرب العظيم هنا أذى المشركين والفجّار فالآية جاءت مباشرة بعد قوله: (**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**)، فبماذا نادى نوح، ومتى؟ يُجيب سبحانه (**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً**)(القمر:١٠- ١٢).

إنّ نداء الأنبياء هو وقت المحنة مع الأعداء، وتأتي الاستجابة بصيحة، أو طوفان، أو زلزال، أو بركان، لأنّ الوعد بالنجاة لهم قد سبق، كما قال تعالى لموسى وهارون وبني إسرائيل أيضاً في عزّ أذى فرعون (**وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**)(الصافات:١١٥)، وكما أنّ فيضان النهر (الذي سُمّى طوفان أيضاً) لم يكن عظيم الكرب لموسى وأصحابه بل أذى الفراعنة، فكذلك الحال مع نوح وأصحابه. وكما أنه وأهله اختصوا بالنجاة من الكرب العظيم فإن ذريته اختصت بالبقاء (**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**) فالبقاء هنا ليس في مقابل الغرق ولو كان كذلك لذُكر نوحاً (ع) مع ذريته بقوله مثلاً (**وجعلناه وذرّيته .**) لأنه كان من الناجين، أو لذكر النجاة صريحاً بقوله (**وجعلنا ذريته هم الناجين**)، فيبدو أنّ نوحاً وذرّيته خُصّوا بالبقاء في الأرض المباركة وعدم مغادرتها، وهذا ما تؤكّده كتب التاريخ فقد جاء في تاريخ الطبري: "..... فلما هبط نوح وذريته وكل من كان في السفينة إلى الأرض قسم الأرض بين ولده أثلاثا فجعل لسام وسطا من الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة

وسيحان وجيحان وفيشون[1]، وذلك ما بين فيشون إلى شرقي النيل وما بين منخر ريح الجنوب إلى منخر الشمال وجعل لحام قسمه غربي النيل فما وراءه إلى منخر ريح الدبور وجعل قسم يافث في فيشون فما وراءه إلى منخر ريح الصبا"[2].

ب - المغرقون من الطوفان

كما ظن المفسرون أن الطوفان استوعب العالم وبالتالي لم ينجُ إلاّ نوح وذريّته واستدلوا على ذلك بالآية: (**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**)، انسحب هذا الظن على المغرقين فظنوا أن البشرية كلها أهلكت بالطوفان واستدلوا على ذلك بآية (**فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧)، كما جاء في تفسير ابن كثير: "أي أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم"[3]، لذا سنقوم باستعراض الآيات القرآنية التي ذُكر فيها المغرَقون، ثم نناقش الآيات التي تبيّن أن هناك من استُثني من الهلاك ممن كان في منطقة الحدث:

١- الآيات التي تعبّر عن المغرقين:

-(**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)(يونس:٧٣) فالمنذَرون فقط هم الذين أصابتهم عاقبة السوء لا العالم ولا حتى المحذَّرين كما سنبيّن لاحقاً.

---

[1] - لاحظ الأسماء (بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وجيحان وفيشون) كلها موجودة في الجزيرة العربية ثم انتقلت إلى الشام والعراق ومصر وادي النيل، وبيت المقدس هنا هي المغارة المقدسة، وهي منبع الأنهار الذي أُخذ إليها نوح (ع) كما جاء في ملحمة جلجامش: "وسيعيش (أوتونفشتيم) بعيداً عند (فم الأنهار)" — راجع بحث: **جنّة آدم**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[2] - الطبري، **التاريخ**، ج١، ص١٢٠.

[3] - ابن كثير، **التفسير**، ج٣، ص١٩٤.

-(**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً**)(الفرقان:٣٧) فلم يقل "وجعلناهم لمن بعدهم آية" بل للناس المزامنين واللاحقين.

-(**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**)(هود:٣٧) فالمغرقون هنا هم "الذين ظلموا".

-(**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ**)(الأعراف:٦٤) وهنا تبيّن الآية أن المغرقين هم "الذين كذّبوا بآيات اللّه" وليس الغافلين الذين لم يأتهم نذير من قبل.

-(**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧) المغرقون هم كما تعرّفهم الآية "قوم سوء" من قوم نوح فقط؟

-(**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**)(نوح:٢٥) باختصار، الآيات جميعها تؤكّد على أن المغرقين كانوا من قوم نوح (ع).

٢- آيات المستثنين من الغرق:

- (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)(هود: ٤٣):

في الحوار الذي دار بين نوح وابنه دليل على أن الهلاك لم يكن لكل من في تلك المنطقة وهو الاستثناء في قوله تعالى: (إلاّ من رحم)، فبعدما بدأ الطوفان وأصبحت السفينة تبحر في موج كالجبال ظن ابن نوح (ع) أن الجبل سوف يعصمه من الغرق فردّ عليه نوح (ع) بأن لا عاصم من أمر اللّه ولكن لم يتركها على إطلاقها وإنما استثنى منهم (إلاّ من رحم)، أي أن هناك من ستنالهم رحمة اللّه ولن يُغرقوا ما لم يكونوا من الذين ظلموا وممن سبق عليهم القول بالهلاك (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)، فبناء على ذلك هناك من عُصم من الهلاك برحمة من اللّه، وهم حتماً ليسوا المؤمنين الذين مع نوح لأنّهم معصومون من الإهلاك سلفاً بسبب إيمانهم ولأنهم كانوا موعودين بالنجاة والنصرة، بينما تلك الفئة نُجّيت برحمة اللّه لا باستحقاق منها، ولو كان المقصود بـ"من رحم" هم المؤمنون لما قال نوح (ع) لابنه (اركب

معنا) بل لطلب منه أن يؤمن أوّلاً ثمّ يدعوه للركوب معه، وقد جاء طلبه هذا بعد أن أفصح ابنه عن عناده واستكباره بقوله (سآوي إلى جبل يعصمني)، ولو ركب معه لكان من هذه الفئة. وقد تكون هي الفئة التي تمّ الإشارة إليها في نهاية سورة نوح (ع) ممّن استُثني من الاستغفار، وهي التي استُثنيت من السلام والبركات حال الهبوط.

- (**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:٧٧):

السرّ في هذه الآية يكمن في كلمة (أجمعين) فلو استخدم لفظ (جميعاً) لنقضنا ما أثبتناه آنفاً من أن هناك أمماً نجت من الطوفان من غير المنذَرين، ولأوهم أن جميع من في تلك المنطقة بلا استثناء أُغرقوا كما في قوله تعالى بشأن فرعون وقومه: (**فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً**)(الإسراء:١٠٣)، بينما الآيات مورد بحثنا تبيّن أن الذين كذّبوا بآيات الله من قوم نوح (ع) أغرقوا، وهناك آخرون من غير المكذّبين لم يُغرقوا، ولو تتبّعنا آيات (أجمعين) في القرآن لوجدنا أن الكثير منها يتبعه أداة الاستثناء (إلاّ) مثل: (**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**)(الحجر:٣٩،٤٠)، و(**فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ**)(الشعراء:١٧٠، ١٧١) بينما جميعاً لا تحتمل الاستثناء لأنّ دلالتها لمّ الأجزاء محور الموضوع. وهذه النتيجة تقودنا إلى سؤال آخر:

هل أنّ سفينة واحدة كانت في منطقة الحدث؟

لم يطرأ هذا السؤال على أحدٍ من المفسرين ولم يتطرّقوا إليه على ظن منهم أن سفينة واحدة فقط هي التي نجت من الطوفان وهي سفينة نوح (ع) لأنّ الناجين هم نوح وذريّته فقط، ولقد بيّنا أن الذين نُجّوا من الطوفان كانوا (أمماً ممن ركب مع نوح، وأمماً غيرهم) ما يُؤيّد فرضية وجود وسائل أخرى متنوعة للنجاة ضمن إطار (إلاّ من رحم)، سواء كانت سفناً صغيرة للمناطق القريبة من الحدث، أو وسائل نجاة أخرى للمناطق التي على هامش الحدث، فهل نجد في الآيات ما يدلّل على وجود أكثر من

سفينة في منطقة الحدث؟ قبل الإجابة على هذا السؤال سنفرّق بين لفظي "السفينة" و"الفلك" أولاً، ثم نستقرئ الآيات ذات العلاقة لنجيب على السؤال السابق.

- ما الفرق بين السفينة والفلك؟

كلمة الفلك جاءت من "فلك" وهو الاستدارة وهو تعبير عن الشكل الهندسي للسفينة، فهو عبارة عن قطع خشبية مربوط بعضها ببعض بألياف طبيعية له شكل قريب من الدائري أو البيضاوي من أحد أطرافه على الأقل، يشبه الكوخ لذا سُمي نوح (ع) في الأساطير بصاحب الكوخ (زيوسدرا، أي ذو السدرة)، فهو نصف اسطواني مسقوف بنصف اسطواني آخر ينحدر عنه الماء، والفلك يُستوى عليه وله سطح آخر غير مماس للماء، أما كلمة "السفينة" جاءت من الفعل "سفن" وله أصل واحد وهو تنحية الشيء عن وجه الشيء الآخر، أي أن السفينة تسفن الماء كأنها تقشّره، والذي صنعه نوح ومن آمن معه كان "فلكاً"، صنعه بعناية وعلم، بينما الآخرون (من البعيدين عن قلب الحدث) نجوا في "سفينة"، إذن كلّ ما مشى في الماء وطفى عليه جارياً، أكان على شكل فلك، أو على شكل مسطّح كأحزمة الخشب الملصوقة ببعضها والطافية، فهو (السفينة)، وهو (الجارية)، والوصف الجامع للاثنين هو "ذات ألواح ودسر"، فكلّ "فلك" إذا أبحر في الماء سفينة، وليس كلّ ما يُبحر في الماء، وهو سفينة، يكون "فلكا". إذن، فلك نوح كانت خاصة ومعدّة لمواجهة الحدث، وكانت هي الوحيدة الناجية في قلب الحدث. ولكن هل كانت هناك سفن أخرى؟

- يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ:

إن أول آية نستوحي منها وجود أكثر من سفينة (أي وسيلة نجاة لا فلكاً، فهناك فرق بينهما كما أسلفنا) في منطقة الحدث هي الآية التي تنقل الحوار الذي دار بين نوح (ع) وابنه: (**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ❖ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء**

قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)(هود:٤٢، ٤٣)، نستنتج من هذه الآيات:

- أن استخدام لفظ (نادى) وليس (قال) مؤشّر على أن نوحاً (ع) كان بعيداً عن ابنه، كما يعبّر هذا اللفظ عن حالة اضطرار ورجاء كان يعيشها نوح (ع) وقد أخذته عاطفة الأبوّة حين رأى بأم عينه قرب هلاك ابنه، فناداه متمنيًا أن يستجيب له، ولو تتبّعنا الآيات القرآنية الكريمة التي جاء فيها لفظ (نادى) لوجدنا أن بعضها يُعبّر عن حالة الاضطرار والرجاء على لسان الأنبياء (ع): (**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ**)(الأنبياء:٨٣) و(**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً**)(الأنبياء:٨٩).

- أن عبارة (وكان في معزل) تُشير إلى أنّه لم يكن أثناء حواره مع أبيه بين أمواج الطوفان التي كانت كالجبال وإنما كان في معزل من الماء، وفي معزل عن أبيه أي أنّه ربما كان على سفينة أخرى، على خشب طاف، على سطح منازل جرفها الطوفان.

- وقوله (لا تكن مع الكافرين) وليس (لا تكن من الكافرين) يعزّز الافتراض بأنه كان متواجداً في قلب الحدث (مع الكافرين) في مكان آخر، والسفينة أو أي وسيلة طافية هنا أنسب مكان بحيث يشعر ابن نوح أنه يمكنه بواسطتها النجاة من الغرق، وفي قوله (سآوي إلى جبل يعصمني) تأكيد على أنه كان لديه وسيلة تنقّل في أمواج الطوفان التي أصبحت كالجبال لشدّة ارتفاعها، فلا يمكن أن نفترض أنه كان ينوي أن يعتصم بالجبل هرباً من الطوفان سيراً على الأقدام.

فعلى هذا يكون التالي:

– إنّ مسألة الفلك خاصّ بنوح فقط ومن معه، أيّ أنّ نوحاً صنع فلكاً واحداً، وحذّر الأقوام التي ليس لها شأن بالعقوبة بأن يتخذوا أهبتهم بصنع ما ينجيهم من الغرق، والفكرة: أُنجي نوح ومن معه في الفلك المشحون، وأُنجي الباقون ممن امتلك سفينة (وسيلة) للنجاة، والعنوان العريض للكلّ "أصحاب السفينة".

– لم يأتِ أبداً وصف فلك نوح أنّه كان سفينة وحسب، مع أنّه سفينة، وقد جاء في سورة العنكبوت مرّة واحدة في آية مختصرة جداً رسمت الملامح العامة لوسيلة

النجاة بأنّها كانت سفينة لدى من كان لديه منها (**فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ**)(العنكبوت:١٥)، فهي وسيلة مذكورة تُحدّد طريقة من نجى من الطوفان، ونوح كانت لديه سفينة هي "فلك"، ولو قالت الآية "فأنجيناه وأصحاب الفلك" لعلمنا أنّه لم ينجُ إلاّ من كان مع نوح، أو من لديه هذه السفينة الأسطوانية الضخمة. إن عبارة "فأنجيناه وأصحاب السفينة" تبين أن نوحاً لم يكن هو صاحب السفينة، بل أنّه صاحب الفلك (ويصنع الفلك)، و"أصحاب السفينة" تعني أن هناك آخرين غيره نُجّوا، ونجاة نوح كانت في سفينته الخاصة (الفلك) التي صنعها بوحي وتعليم الملائكة، ونجاة غيره ممن هم غير الظالمين المُنذَرين تمّ بما تأهبّوا به ليطفوا به على الماء المتلاطم أي (أصحاب سفينة).

وبناء على هذا فإن حادثة الطوفان جُعلت آية من عدّة أبعاد فالمغرقون جُعلوا آية للناس: (**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً**)(الفرقان:٣٧)، والحادثة بتفاصيلها جُعلت آية، وعليه فإن الهاء في (وجعلناها آية للعالمين) في سورة العنكبوت هنا، و(لقد تركناها آية، فهل من مدّكر) في سورة القمر، مع أنّها آية معطوفة على ذكر "السفينة" في النصّ الأول، وعلى ذات الألواح التي جرتْ في النصّ الثاني، فضمير الهاء في "جعلناها"، و"تركناها" لا يعني السفينة والجارية، بل الحادثة كانت آية، الواقعة كانت آية، العقوبة القاسية كانت آية، وليست السفينة آية للعالمين، إن حادثة الطوفان المرعبة جُعلت آية للعالمين وانتشرت وبقى ذكرها في كلّ الشعوب، لكل من أراد أنْ يذكر اللّه ويخاف عذابه "فهل من مدّكر"، لذلك يقول تعالى في سورة الحاقّة (**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**)(الحاقة:١١، ١٢) فالتي جُعلت تذكرة هي الحادثة نفسها، ذُكرت على كلّ الألسن ولدى معظم الشعوب، وهي التي تعيها أذن واعية، ولا معنى لأنْ تعي الأذن "السفينة"!! وليست السفينة أو بقاياها هي الآية فأين هي العبرة في بقايا السفينة إنما العبرة فيما حدث وكيف حدث ونتيجة ما حدث لا في وسيلة النجاة، كما أن الواقع ينافي ذلك فالسفينة لم تُكتشف بعد وإن ادّعوا ذلك.

وقد جاء في تفسير الأمثل في تفسيره للآية الكريمة "لقد تركناها آية": "ثمّ يقول سبحانه وكنتيجة لهذه القصّة العظيمة موضع العظّة والإعتبار: (ولقد تركناها آية فهل من مدّكر) والحقيقة أنّ كلّ ما كان يستحقّ الذكر في هذه القصّة قد قيل، وكلّما ينبغي للإنسان الواعي المتّعظ أن يدركه فهو موجود، وإستناداً إلى هذا التّفسير المنسجم مع الآيات السابقة واللاحقة، فإنّ الضمير في (**تركناها**) يرجع إلى قصّة الطوفان وماضي نوح (عليه السلام) ومخالفيه"[1].

وباعتبار أنّ العقوبة بالطوفان والإغراق آية عالمية للعالمين، نأتي إلى نتيجة أخيرة في تفسير آيات سورة (يس) التي تقول: (**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**)(يس:٤١- ٤٦) ففي قراءة معيّنة، نستطيع أنْ نقول أنّها تشرح الواقعة كلّها على نحو الامتنان والتذكير والتهديد أيضاً، وهذا تحقيق الآية السابقة فعلاً ونصّاً (**لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**). فماذا تقول هذه التذكرة الـ "ياسينيّة"؟

تقول لأجيال الرسالة الخاتمة ومعاصريها: أنّ هذه المنطقة التي فيها هبط التنزيل بينكم، قد أُبيد أهلها وانقطع نسلها، لكنّ الذرّية المستخلفة، والتي منها أنتم، هي التي حُملت هناك، ذرّيتهم (أي أصولهم) التي توسّعت وصارت الآن ترتع وتُسخّر لحرب الدعوة وحصار نبيّها الخاتم، قد حُملت هناك في الفلك المشحون (الخاصّ بنوح ومن معه) أُنجيت بعناية ربّانية خاصّة، وخلق لهم اللّه وسائل أخرى يركبونها أيضاً تُشابه "الفلك المشحون" (من مثله ما يركبون) وهو السفينة أي السُفن (الحاويات الطافية)، وهذه الآية تُبيّن أنّ "السفينة/القوارب" كونها خَلْقاً من مثل "الفلك" هي سابقة ركوبيّة على صناعة الفلك، لذلك فإنّ البعض تصوّر أنّها الأنعام، ولا مورد للأنعام هنا إلاّ بالتنازل عن مفردات مخصوصة مثل "المشحون" وتجاوز السياق، لأنّ السياق متّصل، والأنعام لا تُفيد في الطوفان، وحمل الذرّية، والآية بعدها تتكلّم عن إغراق حيث لا

---

[1] – مكارم الشيرازي، **الأمثل**، ج١٧، ص٢٨٧، ٢٨٨.

صريخ (نصير يُلبّي الصرخة) ولا منقذ، إلاّ رحمة ومتاع حتّى حين ، وأنّها كانت "آية لهم" من آيات ربّهم، أليس هذا كلّه تفاصيل قصّة نوح، ويُذكّرنا بـ (إلاّ من رحم) (وأمم سنمتّعهم)، أليس المخاطبون من قبل محمّد(ص) تلاوةً هنا هم الذين سبق وقيل لنوح عنهم "وأمم سنمتّعهم"؟! فالآن يُذكّرون بأنّ ذراريهم (أصولهم) هؤلاء أُنجوا هناك بالفلك وبغيره من المركبات (السفينة/الجارية/الألواح). إجمالاً، لقد نجا من الطوفان فلك نوح (ع) ومن معه، ووسائل نجاة طافية أخرى (سفن أخرى لآخرين).

رابعاً- جغرافية الطوفان

إنّه من الأهمية بمكان لمعرفة أي حدث تاريخي حق المعرفة أن نحدّد موقعه جغرافياً لعلمنا بأن هناك علاقة رحم وانتساب بين التاريخ والجغرافيا لأن تاريخ الشعوب يجري في مناطق سكناها، بل أن الأصل أنّ الخطوط العريضة لتاريخ الشعوب تراه مكتوباً في جغرافيا بلادهم، لذا دأب المؤرخون قبل كتابة تاريخ بلد من البلدان أن يقدّموا بعض المعلومات الجغرافية عن تلك المنطقة، عن تخومها وجبالها وأنهارها وأجوائها وأشهر مدنها بهدف إدراك تاريخها حق إدراكه، فلكي نعرف أين استقرت السفينة، علينا أن نحدّد قبل ذلك أين وقع الطوفان، ولكي نحدّد ذلك علينا أن نجمع بعض المعلومات التاريخية عن هذا الحدث: متى حدث، وكيف حدث، وما الظروف التي أدّت إلى حدوثه، وهكذا بحيث يتعاون التاريخ والجغرافيا لرسم الصورة الحقيقية للحدث.

إننا نجد هذا النوع من التداخل بين الجغرافيا والتاريخ كثيراً في آيات القرآن الكريم فهو يعطي القارئ مجموعة من المعلومات تعينه على أن يعيش في أجواء الحدث فيتعرّف على خصائص تلك الأقوام، ومن سبقهم ومن لحقهم، وكيف كانت جغرافية منطقتهم، وما هي الظروف المناخية التي يعيشون فيها، فإذا قال بشأن أصحاب الحجر: (**وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ**)(الحجر:٨٢)، نعلم أنّهم كانوا يعيشون في منطقة جبلية، وربما وجدنا فيها إشارة إلى أنّهم أخذوا درساً من حادثة الطوفان التي أغرقت قوم نوح المكذبين الذين سبقوهم زمانياً، فراحوا يبنون بيوتهم في الجبال

طلباً للسلامة، وكذلك إذا قرأنا عن قوم صالح (ع) أنّهم هم الذين عقروا الناقة فنعرف أنّهم كانوا يسكنون في منطقة عربيّة رعويّة تمّ فيها استئناس الأنعام، وإذا ما تكرّر ذكر بعض الأقوام بترتيب معين - مثل قوم نوح وعاد وثمود الذين جاء ذكرهم بهذا الترتيب في خمس آيات كريمات - نعلم أنّ قوم نوح سبقوا قوم هود، وهؤلاء سبقوا قوم صالح، وإذا سمعنا دعاء إبراهيم (ع): (**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ـ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**)(إبراهيم:٣٧) علمنا أن المنطقة التي أسكن فيها هاجر وإسماعيل كانت منطقة قاحلة وغير مأهولة بالسكان، وهكذا، فالقرآن مليء بهذه الإشارات التاريخية والجغرافية التي تأخذ بيد القارئ لتكشف له عن الكثير من الحقائق والوقائع لتعينه على الانتقال إلى منطقة الحدث ومعرفة المزيد من التفاصيل المخبوءة في ثنايا كلماته وبين سطوره.

لم نجد في أي من مصادر البحث إشارة صريحة إلى موقع حدوث الطوفان وإنّما هناك ذكر للموقع الذي رست عليه السفينة، ولقد اختلفت المصادر الثلاثة في تسميته، فالأساطير تسميه (جبل نيشور Mt.Nishur أو جبل نزيري Nasiri أو جبل نصير): "... واستقرّ الفلك على جبل نصير"[١]، والتوراة تسميه جبال (أراراط): "**واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط**"(تكوين ٤:٨) وأطلق عليه القرآن اسم (الجودي): (**ـواستوت على الجودي**)(هود: ٤٤)، كما أنّ أيًّا منها لم يذكر أين يقع الجبل الذي رست عليه السفينة، إذاً فمحاولتنا التعرف على موقع استقرار السفينة سيكون بالرجوع إلى التفاصيل الموجودة في مصادر البحث وإلى المعلومات والحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية.

إن اختلاف التسمية لا يعني بالضرورة اختلاف الموقع وإنما قد يكون لنفس الموقع أكثر من اسم فجبال السراة مثلاً تسمّى جبال شذا، أو جبال لبان، أو جبال الصنوبر، وغير ذلك، كما أنّه قد يُطلق نفس الاسم على أكثر من موقع كما في بعض المدن والأنهار العراقية أو مصر وادي النيل أو سوريا التي حملت أسماء بعض القرى أو الأنهار أو العشائر في الجزيرة العربية مثل نهري دجلة والفرات ومصريم ومسجد

[١] - طه باقر، **ملحمة كلكامش**، ص١٦١.

إيلياء وطور سينا وغيرها الكثير. وقد يتغيّر الاسم بسبب الترجمة وافتقاد اللغات التي يُترجم إليها لبعض الحروف الحلقيّة التي يشتمل عليها الاسم مثل حرف الحاء، والخاء، والعين، والغين، والقاف، أو غيرها كالصاد والظاء والطاء أو حتّى الضاد إن كانت موجودة في اللغة الأم التي جاءت التسمية منها، أو بسبب قاعدة الإبدال والإقلاب التي طالت الكثير من الأسماء العربية القديمة مثل: الفرات/الثرات، وكوفة/كوثى، عيلام/إيلام، أو بسبب جهل بعض قواعد اللغة العربية القديمة مثل إضافة السين في نهاية الكلمة للتقديس، أو النون والميم للجمع، أو إضافة الهاء في البداية بمثابة (أل) التعريف والأمثلة على ذلك كثيرة[١]، وقد يكون بسبب إضافات المفسّر أو الكاتب أو المؤلف وفهمه وتحليله لما قرأ أو سمع فعلى سبيل المثال نقرأ في كتب التاريخ عن علي (ع): "جدودنا حتى قصي بأسماء عربية وما قبله فأسماء آرامية ونحن قدمنا مكة من كوثى"[٢]، هذا هو نص الحديث ثم يضيف الكاتب: (قرية قرب الكوفة الحالية) هذه الإضافة هي التي تشوّش الحقائق فيحلّ فهم الكاتب محلّ المعنى الصحيح أو الذي قصده المتحدّث، فيظن القارئ أن كوثى المقصودة في الحديث هي تلك التي قرب الكوفة الحالية مع العلم أن هناك منطقة باسم (كوثى) قريباً من مكة بل هي محلة بمكة لبني عبدالدار[٣]، وقيل أن كوثى أحد أسماء مكة[٤]، نلاحظ كيف يؤثّر فهم المؤرخ في تغيير الحقائق أو تشويش المعلومات وهو لا يشعر.

لو اطّلعنا على تفاصيل الأسطورة فلن نجد أي مؤشّر فيها على موقع "جبل نصير" وإنما جاء اسم الجبل في أخبار الملك الآشوري "آشور ناصربال" الثاني، وقيل أنه يقع إلى جنوب وادي الزاب الصغير (في العراق)، وقد ذُكر مصحوباً باسم الكوتيين،

---

[١] - راجع بحث: **اللِّسان العربي - بُعد فطري وارتباط كوني**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[٢] - الزمخشري، **الفايق في غريب الحديث**، ج٣، ص١٧٥.

[٣] - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج٦١، ص١٠٠.

[٤] - الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج١، ص٣٠٣.

وحسب رواية بيروسس[1] (الكاتب البابلي) جاء باسم جبل "كوردين" أي جبل الأكراد[2]، أما جبال أراراط التي جاء ذكرها في التوراة فهناك جبل بهذا الاسم في أقصى شرق تركيا عند حدودها مع إيران وأرمينيا، ويأخذ بعض المفسرين المسلمين برواية التوراة في تحديد موقع جبل الجودي على أنه هو جبل أراراط، واعتبر بعضهم أن جبال الأكراد المعروفة بالعراق وإيران هي جبل الجودي، فقد جاء في تفسير الميزان وتفسير الجلالين "الجودي جبل بالجزيرة بقرب الموصل"، ويرى الراغب الإصفهاني في "مفردات ألفاظ القرآن" أن الجودي "اسم جبل بين الموصل والجزيرة"، بينما يرى بعض المؤرّخين والباحثين المتأخرين أنه في الجزيرة العربية كالباحث كمال الصليبي. إذن هناك رأيان لتحديد الموقع الذي استقرّت عليه السفينة: أحدهما يرى أنّه في العراق أو قريباً منها في تركيا أو إيران، والآخر يرى أنه في الجزيرة العربية، فأين حدث الطوفان، أفي العراق، أم في الجزيرة العربية؟ وهل يمكن أن يكون جبل الجودي هو جبل نصير/Nishur وهو نفسه جبل أراراط؟ قبل أن نعالج قضية اختلاف الأسماء فسوف نستحضر مجموعة من الحقائق التاريخية التي تساعد على تحديد موقع حدوث الطوفان فلعلّنا بتحديد الموقع نمهّد لمعرفة سبب اختلاف التسميات.

ذهب معظم المفسّرين الأوائل إلى أن الطوفان كان في العراق ظنّاً منهم أن نوحاً(ع) كان عراقي المولد، كوفي الأصل ترعرع وعاش في الكوفة، بينما هناك بعض الأدلّة التاريخية والشواهد القرآنية التي تثبت أنه كان يسكن في الجزيرة العربية (موطن الأنبياء) نذكر منها:

---

[1] - بيروسس (Berossus) أو (برعوشا) /(برغوشا) الذي يُحاكي اسمه (عبد يغوث) العربيّ، حيث (برعوسا) بر تعني ابن بالسرياني، من برايا أي خلائق، وعوسا هي غوثا، فيكون المعنى (ابن الغوث)، أي إمّا أنه هو استجابة وإغاثة لدعاء والديّه أو هو المغيث لشعبٍ يطلب مغيثاً. وقيل أنه "أحد كهنة مدينة بابل ولعلّه كاهن كبير آلهتها "مردوخ" في القرن الثالث ق.م. عاش فترة من الزمن في بلاد اليونان، وأسس فيها مدرسة للتعليم"، نقلاً عن: طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص٢٢٤.

[2] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص١٧٩، ١٨٠.

١- يذكر المؤرّخون أنّ الجزيرة العربية كانت موطن آدم الأول بعد أن أُهبط من الجنة، وفيها بُعث جميع الأنبياء الذين سكنوا غربها وتجوّلوا في أرجائها، ونوح (ع) أحد هؤلاء الأنبياء وكان يسكن غرب الجزيرة العربية، بل يُذكر أنّه وقومه لم يبتعدوا كثيراً عن موطن آدم، كما جاء في الروايات أن قبر نوح فيما بين الركن والمقام وزمزم، عن النبي (ص): (دُحيت الأرض من مكة ولذلك سُمّيت أمّ القرى .... قال: دُفن نوح وهود وصالح وشُعيب بين زمزم والمقام)[1].

٢- قوم نوح كانوا يقطنون غرب الجزيرة العربية لأنّ خلفاءهم عاد وثمود كانوا – كما يذكر المؤرّخون – باليمن والحجاز فعاد بالأحقاف وهي رمال اليمن، وثمود بالحجر وهي شمال الحجاز، ولوط قرب مدين (أقصى شمال الحجاز)، كما تؤكّد الآيات ذلك: **(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)**(ص:١٢، ١٣)، فهذه الأقوام (الأحزاب) من بعد قوم نوح مشهور أنها بغرب الجزيرة. وفي قوله تعالى: **(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى)**(الأحقاف:٢٧) شاهد قرآني آخر على أنّ قوم نوح كانوا يسكنون حول مكة، فالخطاب في هذه الآيات موجّه لقوم محمد (ص) ويسبقه تذكير بما جرى على قوم عاد الذين جُعلوا خلفاء لقوم نوح، ما يعني أنّ القرى التي أُهلكت كانت حول مكة، أي غرب الجزيرة.

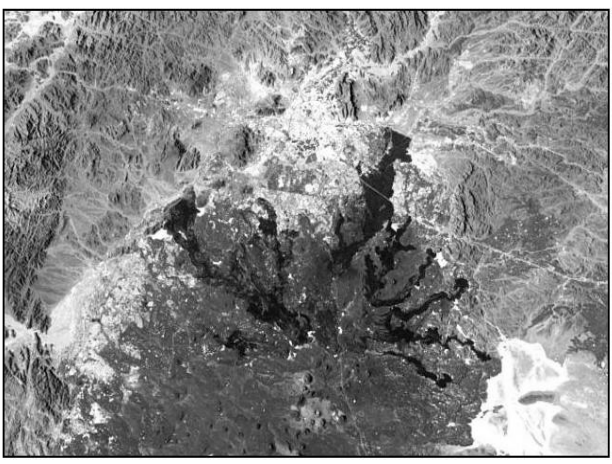
٣- وتكثر البراكين والحرار بغرب الجزيرة (انظر الصورة: ٦)، والحرّة عبارة عن آثار مقذوفات براكين ثارت إمّا مرة واحدة أو على فترات ثم خمدت مخلّفة مساحات شاسعة من الأراضي المغطاة بالحمم البركانية السوداء، وتشتهر المناطق القريبة من الحرار بكثرة معادنها ومناجمها ويظهر ذلك من ألوان جبالها ومن الاكتشافات التعدينية الحديثة وهذه البراكين والحرار تفسر معنى التنّور المذكور في القرآن فالتنّور هو بركان يفور أحياناً بالماء وأحياناً بالحمم والنار، وقد لاحظ العرب هذه الصخور منذ القدم ووصفوها بأنها ذات أحجار نخرة محترقة بالنار التي صاحبت تدفق السائل البركاني وأنها سوداء ذات شكل غريب يلفت الأنظار، وتعد الحرار أحد المعالم الأرضية الفيزيوجغرافية على الطريق المعترض بين شرقي وغربي إقليم الحجاز حتى

---

[1] – الطوسي، **التبيان**، ج١، ص١٣١.

أن الأصمعي يعرف الإقليم بها حيث يذكر أن الحجاز عند العرب هو الإقليم الذي احتجز بالحرات[١].

Rahat, Harrat



The northern part of Saudi Arabia's largest lava field, 20,000 sq km Harrat Rahat, is seen in this Space Shuttle image with north to the upper left. Harrat Rahat extends for 300 km south of the holy city of Madinah (Medina), the light-colored area at the top-center. Although basaltic scoria cones dominate Harrat Rahat, small shield volcanoes and pelean-type lava domes are also present. The best-known eruption took place in 1256 AD, when the large dark-colored flow seen extending to the upper right traveled 23 km to within 4 km of Madinah.

البراكين والحرار في غرب الجزيرة العربية (الصورة: ٦)

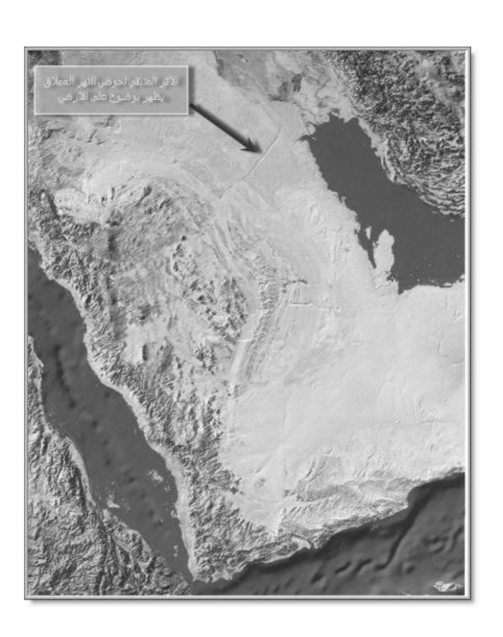
٤- كما تؤكّد بعض الدراسات الجغرافية على وجود خزان ضخم من المياه الجوفية ولعلّه أكبر خزان مائي أحفوري في العالم، والمياه الأحفورية مياه تكوّنت قبل أكثر من بضعة آلاف السنين، والتي قد يكون سببها الطوفان العظيم بجزيرة العرب، حيث ابتلعت أرض الجزيرة مياه الطوفان. وقد أظهرت أجهزة الرادار المركبة على متن مكوك الفضاء (كولومبيا) وجود مجرى لنهر قديم عملاق يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق (انظر الصورة: ٧)، كما ذكر الدكتور فاروق الباز مدير وكالة ناسا للفضاء وجود كميات هائلة من المياه الجوفية في مسار هذا النهر القديم الذي كان

---

[١] - بتصرّف من الموقع الالكتروني:

http://www.islamonline.net/Arabic/Science06/11/2002/Article/shtml.

يجري بالمياه قبل ٥٠٠٠ عام، وقال إن منطقة الجزيرة العربية وبالتحديد صحراء الربع الخالي تتربع على بحر هائل من الماء العذب، وأنّ المياه الجوفية توجد بكميات هائلة في الصحراء العربية وفي شبه الجزيرة وفي الربع الخالي تحت الكثبان الرملية، ووصف منطقة الربع الخالي بأنها "مصيدة المياه الجوفية"[1].



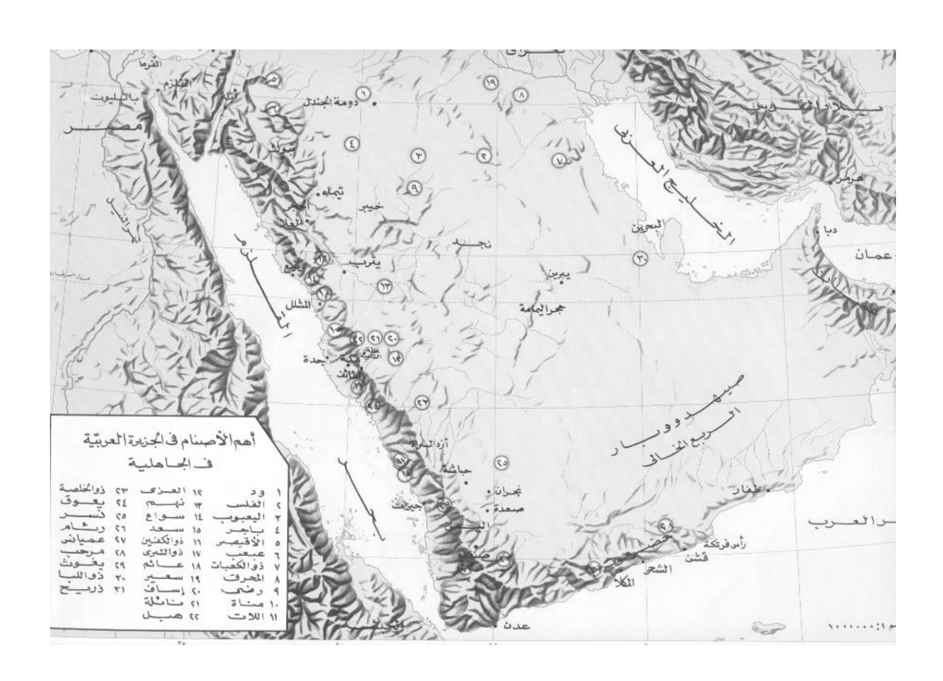
(الصورة:٧) أثر للنهر الذي كان يخترق شبه الجزيرة العربية

٥- يتّضح من أسماء الأنبياء (ع) مثل: هود، صالح، نوح، وأسماء القبائل والمناطق مثل ثمود، إرم، الحجر، الأحقاف، وأسماء الآلهة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق ونسر، أنّها أسماء أقرب إلى العربية المستخدمة في جوف الجزيرة العربية (تمييزاً لها عن العربية السريانية في العراق والفينيقية في غرب الشام ومصر وادي النيل) ولها اشتقاقاتها لدى العرب مثل الإغاثة والإعاقة والصلاح وغير ذلك، كما تُشير كُتب التاريخ إلى مواقع هذه الأصنام في غرب وجنوب غرب الجزيرة العربية حول مكة، عن

---

(١) - موقع: الجزيرة نت — المصدر "رويترز" - الاثنين ١٤٢٢/١١/٢٢هـ الموافق ٢٠٠٢/٢/٤م، (توقيت النشر) الساعة: ١٤:٥٤ (مكة المكرمة)،١١:٥٤ (غرينيتش).

ابن عباس : (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت)[1]، ويتبيّن من الآيات القرآنية الكريمة صحة هذه المقولة إذ أن الآية تفرّق بين الآلهة وبين هؤلاء (**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**)(نوح:٢٣)، فلو كانت الآلهة هي وداً وسواعا ويغوث ونسرا لقال (ولا تذرنّ آلهتكم ودّاً وسواعاً ... الخ) ولما كان هناك من داع لتكرار (لا تذرنَّ)، فهذا دليل آخر على أن نوحاً (ع) وقومه كانوا يسكنون في تلك المنطقة (انظر الصورة:٨).



(الصورة: ٨) أهم الأصنام في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية

[1] - البخاري، **الصحيح**، ج٦، ص٧٣.

٦- تؤكّد مصادر التراث القديم أن قوم نوح (ع) ابتلوا بالقحط لعدّة سنوات قبل الطوفان، فنجد بعض المؤشرات القرآنية التي تبيّن أنهم كانوا يعانون من قلة الأمطار ونضوب الأنهار، حين يخاطب نوح (ع) قومه ويعدهم بالأمطار والجنّات والأنهار بقوله: (**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**)(نوح:١٠- ١٢) ما يعني أنهم كانوا يفتقرون إلى الأمطار ويشتكون من نضوب الأنهار بحيث أصبح إرسال السماء عليهم مدراراً بمثابة المكافأة وجزاءً على إيمانهم واستغفارهم، وهذا ما تؤكّده الأسطورة.

٧- نختم بمقطع من الأسطورة يؤكّد على أن جلجامش من سلالة نوح (ع) من أبناء منطقة غرب الجزيرة العربية، أبناء السراة .. حيث يقول في وصفه لرحلته للقاء جدّه "أتونفشتيم":

إن أنا قطعت طريقاً طويلة

فللعثور على "أوتانابشتيم" جدّي

الذي حضر مجمع الآلهة وحظى بالخلود

جئت لأسأله عن لغز الحياة والموت ...

جلجامش - كما تعرّفه كتب التاريخ — أحد ملوك العراق، حكم بعد الطوفان بحوالي ٢٠٠ سنة، وهو من سلالة الأنبياء، وأمّه "نفسون" وأبوه "لوگال بندا" كانا من الشخصيات الموقّرة المقدسة، وهو هنا يبين أنه من سلالة نوح (ع)، فهم من أبناء المنطقة، أبناء السراة، وهم يقدسونها ويعرفون أسرارها.

مما تقدّم تبيّن أن نوحاً (ع) كان يسكن وقومه غرب الجزيرة العربية، في منطقة قريبة من مكة المكرمة (حولها) حيث تمتد سلسلة جبال السراة على طول ساحل البحر الأحمر، نستنتج من ذلك أن الطوفان حدث في منطقة سكنى نوح (ع)، فكيف التبس الأمر على دارسي الأساطير، ومدوني التوراة، ومفسّريّ القرآن وظنّ معظمهم أن الطوفان كان في العراق وأن السفينة رست على جبل نصير في العراق، أو جبال

أراراط في تركيا؟ نعتقد أنّ أحد أهم الأسباب- إلى جانب ما ذُكر آنفاً مما له علاقة بفهم قواعد اللغة العربية وغير ذلك- التي تؤدي إلى أمثال هذا اللبس هو اعتماد الأسماء المذكورة في كتب التاريخ قبل التحقق من مواقعها الجغرافية الأصلية فكما أثبت الباحثون المتأخرون مثل كمال الصليبي أن الكثير من أسماء القرى والأنهار والجبال والوديان التي كانت في الجزيرة العربية أُطلقت على المناطق التي نزحت إليها شعوب الجزيرة العربية مثل وادي النيل والشام والعراق إمّا تيمّناً بها، أو إسقاطاً لها، فإن الكثير من الأسماء المذكورة في حادثة الطوفان سواء في الأسطورة أو مدونات التوراة أو في كتب التاريخ نجدها في غرب الجزيرة العربية مثل الجودي، نصير، أراراط، شروباك، كوثى، وسنجد أنّ لها معاني متقاربة رغم اختلاف ألفاظها، نذكر منها ما يعين في توضيح اللبس الذي أدّى إلى اختلاف اسم الموقع الذي رست عليه السفينة في المصادر الثلاثة:

١- جبل نيشور "Nishur":

كلمة Nishur مركبة من كلمتين (ني) أي السيدة أو الربّة، و(شورو) يعني ثور بالسرياني، وهو رمز الخصب، والثور ذو قرنين، فيكون المعنى سيدة الجبل ذي القرنين أو سيدة جبل الخصب، فـ"نيشور" هو الجبل المزدهر، ويُذكّرنا بـ (شورو-باك) التي أُخذ لها نوح في خاتمته وتعني (ثورُ بكّة) أي سيّد بكّة/الجبل الخصيب في بكّة/ وذو قرني بكّة، حيث أحد قرنيه (قمّتيْه) تستقبل شروق الشمس والأخرى تستقبل غروبها (ولعلّ الروايات التي قالت بأنّ الأرض محمولة على قرني ثور تحمل المغزى نفسه لهذه البقعة المركزيّة، وكذلك أساطير تمثيل هرقل يحمل الأرض بيديه (قرنيْن) حيث تحليل هُرگل هي هور-گل أي الجبل الجليل!)، وهو نفسه جبال ماشو كما جاء في الأسطورة:

ثم بلغ جلجامش جبلاً عظيما ...

وكان اسم الجبل (ماشو)[1] فبلغه

وهو الجبل الذي يحرس كل يوم شروق الشمس وغروبها

والذي تبلغ أعاليه قبة السماء

وفي الأسفل ينزل صدره إلى العالم الأسفل[2]

إن هذا الجبل (ماشو) والذي يعني ذا القمتين المتساويتين في العلو (التوأمين)، هو نفسه الجبل المزدهر كما دعاه عرب وادي النيل، وهو الجبل الذي أُخذ إليه "أتونفشتيم" ودخل في الخالدين وسُمي "فم الأنهار". وقد أُطلق على هذا الجبل في بعض الترجمات اسم "نصير" أو "نزيري" ونعتقد أنها ترجمة خاطئة لـ (نيسور/نيشور).

٢- جبال أراراط:

وهو الاسم الذي ذُكر في التوراة واعتمده بعض المفسرين المسلمين، وحسب الباحث كمال الصليبي فإنه يرى "أن منطقة الطوفان كانت في وادي نجران حيث كانت تسكن قبيلة نوح (ع) فاستقرت السفينة على مرتفعات جبل طويق في أواسط الجزيرة العربية ... وربما كانت مرتفعات جبل طويق شمال وادي نجران تعرف في الأزمنة الغابرة باسم (أررط) نسبة إلى واحة (أرط)"[3]، وهناك رأي آخر يرى أن جبل "أرارات" هو جبل "أرتا-Aratta"، وجبل "أراتا" هذا هو جبل النور، وفيه المعبد والمزار القصيّ الذي أُنزل من السماء، وهو الجبل المقدّس الذي رحل إليه لوگال بندا جدّ جلجامش، وهو الجبل الذي سمّته التوراة "أرارات"، ولعلّ الكلمة مكوّنة من مقطعين "أرّ-أرات" و"أرّى" أي اشتعل، اتّقد، فهو الجبل البركاني، جبل النار (أرات) المتوقّد. أو هو "أور أرات" و"أور" هي حور أي مغاور السكن، وأرات (والبعض يقول أنّها "عراد" بإبدال العين

---

[1] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص١٣٤.

[2] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص١٣٤.

[3] - كمال الصليبي، **خفايا التوراة**، ص٥٧.

والألف، والتاء والدال حسب اللهجات القديمة): جبل البركان[1]. ونحن نجد أن هذا الرأي أكثر دقة في تحديد الموقع وأقرب إلى صورة حادثة الطوفان التي ترسمها مصادر التراث القديم وترى أن أحداثها تدور في منطقة الجبل البركاني أو جبل النار أو التنور كما سيأتي ذكره. أما كيف اعتقد مفسّرو التوراة أنه في أرمينا فهذا ما لا نجد له أي دليل حتى أننا لنقرأ في ترجمة كلمة Ararat (العبرية!)

Ararat (<u>or rather</u> Armenia): - Ararat, Armenia

ولا ندري كيف أصبحت أرارات أرمينيا !!

٣- الجودي:

(**واستوت على الجودي**)(هود: ٤٤)، ذُكر للجودي أسماء ومعاني مختلفة بعضها يُحدّد منطقة وجود هذا الجبل فسمّي "الجبل الساحلي" ويعني به سلسلة جبال السراة الممتدة على ساحل البحر الأحمر، وسُمّي كذلك لأن كلمة "جُدّة" في اللغة تعني ساحل البحر، وسُمّيت "جدّة" كذلك لموقعها على ساحل البحر الأحمر، فالجودي هنا استقى اسمه من معنى الكلمة فسُمّي" الجبل الساحلي"، وقد تكون تسمية مشتقة من الكلمة السومرية (كور) بمعنى الجبل أو فوهة الجبل، ومن معاني جُدّة: الطريقة والعلامة، وهي مفرد جُدَد، مثل شُعبة شُعَب، وقد سمّى القرآن الكريم بعض أنواع الجبال (جُدَد)، وهي جبال مميّزة، ذات ألوان مختلفة، فيها خطوط وطرائق بيض وحمر وأخرى سوداء داكنة كما توصفها الآية ٢٧ من سورة فاطر: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ <u>جُدَدٌ</u> بِيضٌ وَحُمْرٌ <u>مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا</u> وَغَرَابِيبُ سُودٌ**)(فاطر:٢٧)، وتلك هي صفة الجبال الممتدّة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر وتحاذيه محاذاة شديدة الانتظام من مكة حتى عدن، كما يذكر ذلك حامد العولقي فيحدّد موقع الجودي في جبال الجزيرة الممتدة بين مكة وصنعاء، ويضيف أن أعرق قبيلة سكنت تلك المناطق الجبلية أو السراة وأشهرها هي

---

[1] – راجع بحث: **وعَصى آدمُ الحقيقةُ – دونَ قناعٍ**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

"الأزد" واسمها الأفصح هو "الأسد" وكلمة أسد وأزد لهجة في (أجد) فسُمّيت هذه القبيلة بهذه التسمية بسبب وجودها بمنطقة الجودي، ويذكر: "أن الكلمة الشديدة القرب من الجودي أتت في اسم خولان الشام[١]، ففي نقوش اليمن ظهرت أسماء مثل خولان صعدة أو الأجدود، فخولان الجنوبية وهي الأصلية تسكن غرب مأرب، أما الشمالية وهي الفرع فسكنت بمنطقة الجودي التي تسمت خولان باسمها، فعرفوا بالأجدود. وقال الهمداني: ثم يتصل بها سراة خولان ويسمّى القدّ، والقدّ يبدو لهجة في الجُدّ (جودي)"[٢]. ويحدّد موقع رسوّ السفينة بقوله: "قد توجد السفينة بقسم السراة الذي تسمّت به قبيلة الأسد وأرض طود التي ذكرها الهمداني قرب أبها، وجبل سودة، وصعدة وخولان الأجدود، فهذا القسم الجنوبي أو الأوسط من السراة والذي يشمل صعدة اليمن وأبها عسير وبلاد الأزد، يبدو من أسماء قبائله ومناطقه أكثر أقسام السراة ترشيحاً وترجيحاً لاحتواء موقع الجودي الذي به الفلك العظيم"[٣].

ومِنَ المؤرّخين مَنْ يرى أن الجودي بالجزيرة وفيه (التنور): (أما جبل "جودي" فالكلمة في القاموس الكلداني من جدا، جوديا أي شبّ، علا، ارتفع، قذف، أصعد، وهذا يذكّرنا بـ"التنور" الذي فار بالعذاب"[٤]، وتؤكّد المصادر العربية أن هذه الفوهة هي التي تفجرت بالمياه زمن الطوفان، وكان فورانها علامة على بدء الطوفان، وقد أورد الطبري في تاريخه: "فقيل لنوح إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك"[٥]. كلمة "**التنور**" مركّبة في العربية القديمة من كلمتين: (تن) وتعني (أتون)، و(نور) وتعني (نار) فيصبح معنى (التنّور): أتون النار أي (الجبل البركاني)، كما جاء في محيط المحيط : التنورة من الملابس ما يحيط بالجسم من الخصر إلى القدمين، وسُمّيت كذلك لأن شكلها يشبه شكل التنّور، ونرى معنى قريباً منه في

---

[١] - خولان: اسم لقبيلة يمنية.

[٢] - حامد العولقي، **الجودي** (بتصرّف)، http://www.khayma.com/albayan/judi.html

[٣] - حامد العولقي، **الجودي**، http://www.khayma.com/albayan/judi.html

[٤] - أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود**، ص ٢٤٠.

[٥] - الطبري، **التاريخ**، ج١، ص١٢٨.

وصف الطوفان في التوراة: (**وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ**)(تكوين ٧ : ١١) وقد تُرجمت (طاقات) بالإنجليزية إلى عدّة معاني قريبة من المعنى الذي ذكرناه فسُمّيت (chimney)[١] وتعني المدخنة التي تُستخدم لتصريف الدخان، وهي صورة قريبة جداً من اللفظ القرآني (التنّور). فهذه الفوهة البركانية التي فارت بالعذاب وتفجّرت بالمياه زمن الطوفان وقد أوردها القرآن الكريم بهذه التسمية (التنّور)، هي ضمن سلسلة جبال السراة الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر (الجودي)، وعلى أحد جبالها رست سفينة نوح (ع).



تنور في الجزيرة العربية (الصورة: ٩)

اختلفت الروايات في موقع التنور فقالوا تفسيراً لقوله تعالى: (**فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**)(المؤمنون: ٢٧)، ("فار تنور آدم بالهند"، وقيل: "أنه مسجد الكوفة"، قاله علي

---

[١] - انظر (الصورة: ٩) صورة مدخنة.

بن أبي طالب (ع)، وقال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة)[1]. فأين كان التنور هل في الهند أم في الكوفة أم في الجزيرة العربية؟

إذا كان التنور علامة لنوح (ع) على بدء الطوفان، ونوح موجود في الجزيرة العربية، فمن الطبيعي أن يكون التنّور (العلامة) أحد الجبال القريبة من منطقة سكنه بحيث يصلح أن يكون له علامة، وهذا ينفي كونه في الكوفة أو الهند؟ فما الذي أتى بـ"الهند" و"الكوفة" هنا؟

حل إشكال الروايات بشأن موقع التنور:

في الواقع أن كل هذه الأسماء موجودة في الجزيرة العربية ولكن وللأسباب التي أوردناها سابقاً وقع اللبس وظنّوا أنها ثلاث مناطق مختلفة، وسوف يُحلّ هذا الإشكال بعد أن نُحدّد أين (الهند)، وأين (الكوفة).

أما "الهند" فهو جبل "نُد" والهاء للتعريف، وتجمع مصادر التاريخ العربي على أن آدم أُهبط على جبل يقال له "نُد" ولما كانت العربية تكتب بدون أحرف صوتية فقد صار يكتب فيما بعد "نود" و "نودي" وأحياناً تضاف إليه هاء التعريف فتُكتب "هند" وبالكلداني تعني النتوء، الجبل المتفجّر"[2]، لاحظ القرب الصوتي بين كلمتي: نُد و نُتُؤ، فالهند هنا هي جبل (نودي) في الجزيرة العربية. جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد: "وبجبل نوذ نجر نوح السفينة ومن ثم بدأ الطوفان فركب نوح السفينة ومعه بنوه هؤلاء وكنائنه نساء بنيه هؤلاء وثلاثة وسبعون من بني شيث ممن آمن به فكانوا ثمانين في السفينة .."[3]، وفي التوراة نجد أن قايين بعد قتله هابيل طُرد إلى أرض "نود": (**فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن**)(تكوين ٤:١١)، فالهند إذاً جبل "نُد" في الجزيرة العربية، شرقي جنّة آدم.

---

[1] – القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص١٥.

[2] – أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ص ٢٤٠.

[3] – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ص١٢.

وأما الكوفة، فهناك منطقة في الجزيرة العربية باسم "كوثى" عند بابل المحطة على نهر "كبار" الذي يرفد نهر "الثرات" قبل التقائه بنهر "رنيا" شرقي غامد، وتيمّنا بها دُعيت الكوفة الموجودة في العراق[1]. وقد جاء عن الإمام علي بن أبي طالب (ع): "... ونحن قدمنا مكة من كوثى"[2]. فالتنور إذاً أحد الجبال البركانية في سلسلة جبال السراة في الجزيرة العربية (جبل نُد أو هند) في منطقة كوثى شرقي بلاد غامد.

وأخيراً لقد تكرّر ذكر مدينة "شروباك" في الأسطورة على أنها موطن بطل الطوفان البابلي (أوتونفشتيم)، والتي تُعرف أطلالها الآن باسم تل "فارة" بالقرب من مدينة الوركاء في العراق، وجاء ذكرها في إثبات الملوك السومرية من بين المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات ما قبل الطوفان[3]، ولكن بالرجوع إلى أصل الكلمة والتي نرى أنها مركّبة من مقطعين : "شورو-بك" وهي شورو يعني ثور بالسرياني، وبكّة، أي ثور بكة، خصب بكة، رئيس بكة. والثور ذو قرنين، فكأنه الجبل ذو القرنين لبكة، هو ثور بكة، شورو بك، وهو جبل "ماشو" كما أسلفنا، وهذا لا يمنع من وجود مدينة في العراق باسم "شروباك" ولا يبعد أنها سُمّيت كذلك تيمّناً بمغارة "شروباك" الموجودة في شبه الجزيرة العربية وخاصة إذا علمنا أن بعض سكان العراق كانوا من النازحين من شرق الجزيرة العربية أو ما يسمى بـ(قاع الخليج)، وقد يكون هذا ما أوهم دارسيّ الأسطورة ومترجميها بأنها هي المدينة العراقية فاعتقدوا أن الطوفان حدث في العراق.

مما تقدّم نستنتج أن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح (ع) — الجودي - هو نتوء جبلي يقع ضمن جبال السراة غرب الجزيرة العربية التي عُرفت بأسماء متعدّدة، وهو ليس جبلاً واحداً وإنما سلسلة من الجبال تصل إلى سبعة أو أكثر تمتد على ساحل البحر الأحمر، ومن أحد فوهاته فارت المياه التي كانت علامة على بداية الطوفان (التنور)، وهو نفسه المذكور في الروايات بأنّه في الكوفة (كوثى)، وهو نفسه

[1] - أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ص ٢٤٨.

[2] - الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج١، ص٣٠٣.

[3] - طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص ١٧٨.

الذي ذُكر في الأساطير باسم (جبل Nishur)، وهو نفسه جبل أرارات (الجبل المتوقّد) الذي ذُكر في التوراة، وهو نفسه الذي تقع قريباً منه "مغارة شروبك"[1] المذكور في الأسطورة، وهو الجودي الذي ذكره القرآن، وبهذا يُحلّ إشكال اختلاف التسميات واختلاف المواقع الذي جاء في المصادر المختلفة.

خامساً- الأسباب الطبيعية للطوفان

كما تضاربت الآراء في المصادر الثلاثة حول موقع حدوث الطوفان، فكذلك تباينت النظريات حول الأسباب الطبيعية التي أدّت إلى حدوثه ومن ثَمّ كيفية حدوثه، وبما أننا أثبتنا أنه كان في الجزيرة العربية حيث موطن نوح (ع) وقومه، فيمكننا أن نستبعد كل النظريات التي تتبنّى الرأي القائل بحدوث الطوفان في العراق، ولكن استكمالاً لمحاور البحث فسوف نستعرض بعض هذه النظريات ونناقشها فنطرح ما لا يتّفق مع التفسير العلمي أو التحليل المنطقي، ونقبل ما نجده موافقاً للمعطيات التاريخية والجغرافية والمناخية التي تعرّضت لها المنطقة التي حدث فيها الطوفان بهدف التوصّل إلى رأي يعلّل هذا الحدث ويفسّر أسبابه الطبيعية بما لا يتضارب مع الحقائق العلمية.

أ- الطوفان نتيجة لفيضان الأنهار

إنّ من قال أن سفينة نوح (ع) استقرّت على جبال أراراط في شمال تركيا، اعتقد ذلك ظنّاً منه أن نوحاً (ع) كان في الكوفة، وأن الطوفان كان في العراق. ينقسم أصحاب هذا التصور إلى فريقين، فريق يذهب إلى أنّه لما بدأ الطوفان دُفعت سفينة نوح بقوة الأمواج من العراق إلى منطقة الحجاز نحو البيت العتيق - وهو الموقع الوحيد الذي لم تغمره المياه - وقد طافت السفينة حوله ثم دفعتها الأمواج نحو

---

[1] - حين نقول "مغارة" فإننا نقصد جيوب ومغاور في الجبال صالحة للسكن تحاكي مدن اليوم كما هي أطلال مدائن صالح في جيوب الجبال.

الشرق لتستوي على جبل الجودي في منطقة الموصل شمال العراق[١]، ويُعزي أصحاب هذا الرأي كمية المياه الهائلة التي استطاعت أن تستوعب تلك المنطقة الشاسعة بحيث تغطّي أعلى قمة جبل إلى فيضان نهريّ دجلة والفرات بسبب ذوبان الجليد المتراكم على جبال الأناضول في تركيا، وهذا التفسير هو الأكثر رواجاً بين المؤرخين المتقدّمين، أما الفريق الآخر ويمثّله بعض المفسرين المسلمين الذين يعتقدون بشمولية الطوفان فيرون أن بداية الطوفان كان في العراق ثم غطّى الكرة الأرضية بأكملها وطافت السفينة حول الأرض حتى انتهت إلى الجزيرة العربية وطافت حول البيت ثم عادت ورست على جبال أراراط في تركيا! يقول صاحب تفسير الأمثل: "وإذا عرفنا أن نوحاً كان يسكن الكوفة-كما تقول الروايات- وأن طرف الطوفان وحافته- طبقاً للروايات الأخرى- كان في مكة وبيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضاً مؤيّد لعالمية الطوفان"[٢]. علمياً لا تصمد هذه النظرية للنقد لأنّ طوفاناً بهذا الحجم بحيث تغطي المياه تلك المناطق الشاسعة من تركيا شمالاً إلى سوريا ثم العراق حتى يصل إلى غرب الجزيرة العربية (على رأي من يقول بمحلية الطوفان ويحدّده في العراق) بحاجة إلى كميّة من المياه العارمة والرياح القوية بحيث يمكنها أن تدفع بالسفينة كل تلك المسافات حتى تصل إلى منطقة الحجاز ثم تعود لتستقر على جبل أراراط في تركيا والذي يبلغ ارتفاعه ٥,١٠٠ متر، وهذا لا يمكن أن يكون مهما تكن كمية الجليد المتراكمة على جبال الأناضول، ومهما يكن انخفاض مستوى الأرض في العراق.

أما من اعتقد بشموليته فقد اضطر أن يفترض أن الناس كلها كانت تعيش في العراق، فأبيدوا بالطوفان ثم أتى عالم جديد وصار سكناهم في نفس المنطقة وذلك لخصوبة التربة، وأول دليل على عدم صحة هذا الافتراض هو الآثار التي اكتُشفت في العراق وتثبت أن لها حضارة تمتد إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد أي قبل الطوفان بألفي سنة، ولو أصاب الأرض طوفان عالمي بحيث يقضي على كل ما عليها ومن عليها

---

[١] - إسماعيل ناصر الصمادي، **تاريخ بلاد الرافدين العريق**:

http://www.alwatan-news.com/data

[٢] - مكارم الشيرازي، **الأمثل**، ج٦، ص٥٠١.

لقضى على تلك الآثار أولاً، ولقضى على أهل تلك المنطقة، مع العلم بأن تاريخ العراق القديم مليء بالوقائع والحوادث التي تنفي هذا الافتراض. بل أنّ مئات الآثار التي تُكتشف كلّ يوم في الجليد أو المغارات والكهوف أو السراديب والحفر أو الأهرام والتلال لمدن كاملة أو أدوات وأثاث وجرار مرتّبة في أماكنها أو هياكل لموتى موضوعة بطريقة طقسيّة تحفّها النباتات والأدوات، واكتُشف أنّ زمانها سبَق الطوفان بإثبات العلم بما يصل إلى المئات أو الآلاف وعشرات الآلاف من السنين، فإنّها تدحض عالمية الطوفان، لأنّه سيكون جرف كلّ شيء وما أبقى لنظام أو أوضاع أو محفوظات مِن أثر.

كما ويُذكر في الأساطير وفي التوراة أن ريح الجنوب كانت أحد الأسباب التي ساهمت في رفع وتيرة التقلبات الجوية في المنطقة التي أصابها الطوفان، بينما هذه النظرية تفترض أن الرياح التي دفعت بالسفينة من العراق نحو الجزيرة العربية كانت شمالية، ثم تحوّلت إلى جنوبية شرقية.

فرغم أن العراق كان يتعرّض للكثير من الفيضانات بسبب نهري دجلة والفرات حتى أنه أُطلق عليهما اسم النهرين المجنونين، إلاّ أنه مهما يكن حجم تلك الفيضانات فإنها لم تترك آثاراً وخيمة كتلك التي تركها طوفان نوح (ع) في منطقة الجزيرة العربية فتغيّر مناخها وغيضت أنهارها وأصبحت صحراء قاحلة بعد أن كانت خضراء فنزح عنها أهلها وانتشروا في شمال وشمال شرق الجزيرة.

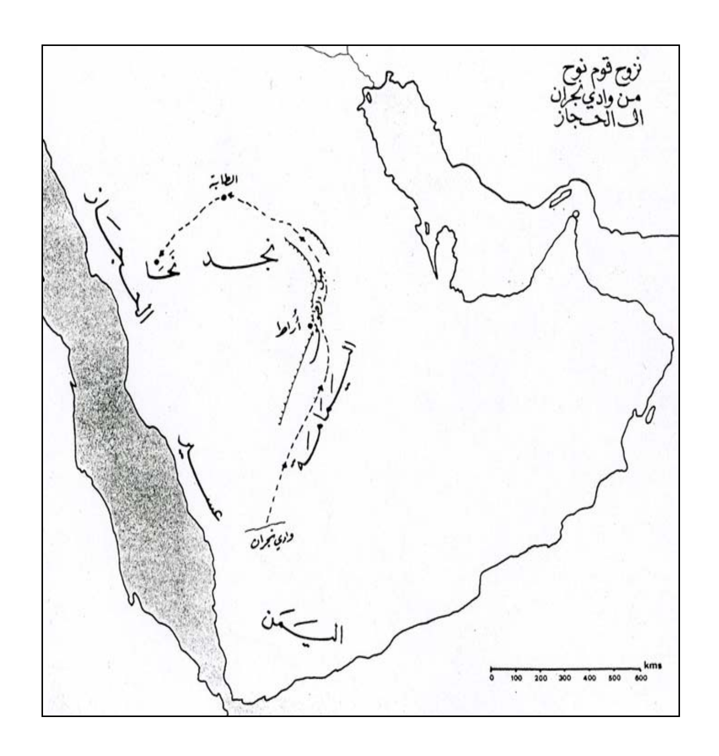
ب- الطوفان بسبب الأمطار

يرى الباحث كمال الصليبي أن حادثة الطوفان كانت في شبه الجزيرة العربية بسبب السيول الجارفة الناتجة عن أمطار عظيمة، لاعتقاده أن مثل هذا السيل ليس مألوفاً في العراق بل هو من مزايا المناطق الغربية من شبه جزيرة العرب، ويرى "أن قبيلة نوح رحلت من مواطنها المنكوبة في وادي نجران – بعد انتهاء الطوفان – متجهة إلى الشمال لتنحرف شرقاً حتى تصل إلى مرتفعات جبل طويق في أواسط الجزيرة العربية"[١]، هنا يحاول الباحث أن يرسم خط سير السفينة بعد انتهاء الطوفان ونزوح نوح

---

[١] – كمال الصليبي، **خفايا التوراة**، ص ٥٧.

(ع) وذريته إلى (وادي أررط) حيث استقرت السفينة على جبل أراراط، هذا الرأي أقرب إلى منطقة الطوفان ولكنه لم يعلّل أسباب الطوفان وأوعز تلك الكمّيات الهائلة من المياه إلى الأمطار الغزيرة فقط مع العلم أن هذا الطوفان كان حدثاً كارثياً عظيماً بحيث أثّر في جغرافية المنطقة ومناخها، فتصحّرت ونضبت أنهارها بعد أن كانت جنّات وأنهاراً، فما خلّفه هذا الطوفان من دمار كان أكبر من مجرد سيل جارف؛ كما أن منطقة رسوّ السفينة، أو المنطقة التي رحل إليها نوح (ع) – بحسب الصليبي – بعيدة جداً عن بؤرة الحدث، بينما كتب التاريخ تؤكّد على أن نوحاً وذريّته لم يبتعدوا عن موطنهم الأصلي بعد الطوفان كما جاء في تاريخ الطبري: "فنزل بنو سام المجدل (سرّة الأرض) وهو ما بين ساتيدما إلى البحر وما بين اليمن إلى الشام"[1]. (انظر الصورة:١٠)



(الصورة:١٠) (خط سير سفينة نوح كما يصفه الصليبي)

---

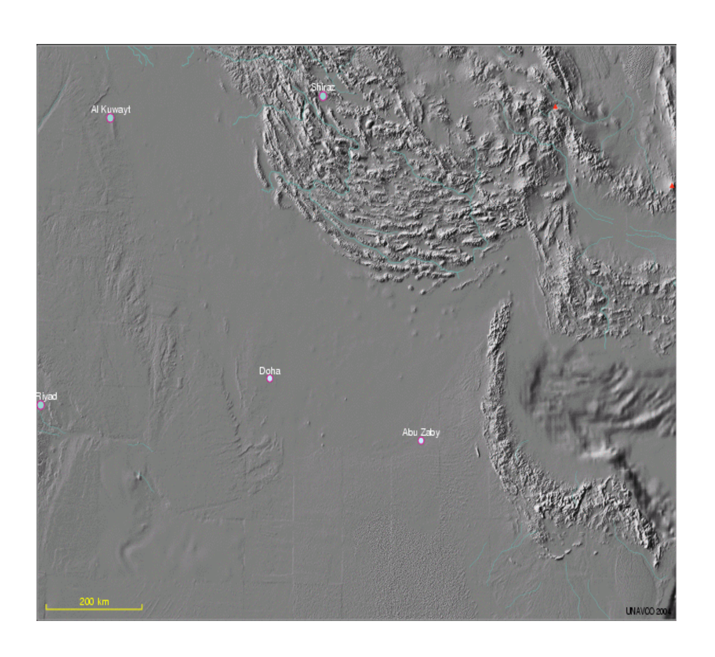
[1] – الطبري، **تاريخ الطبري**، ج١، ص ١٤٤.

ج- الطوفان بسبب ضغط المياه الجوفية

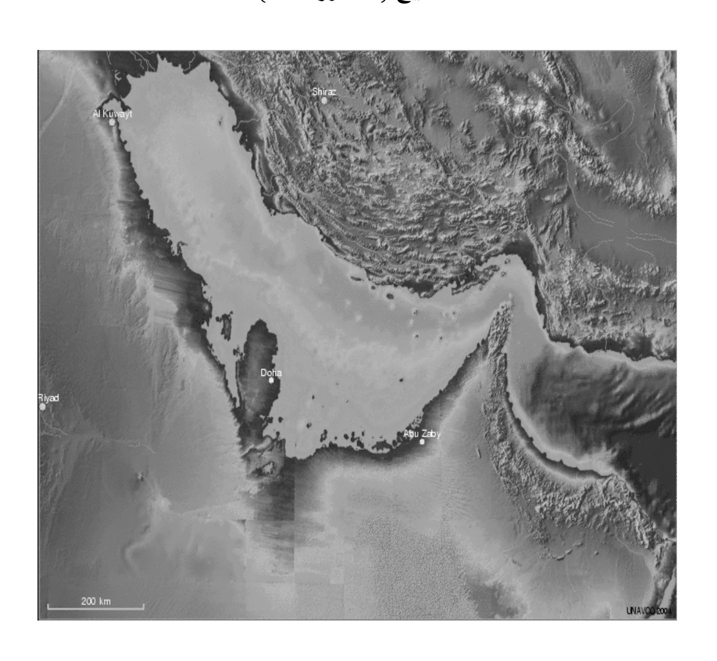
هذا الرأي يذكر التفسير العلمي لأسباب الطوفان نذكره ثم نعلّق عليه: "أنّه مع بداية العصر الدفيء الحالي في حوالي ١٤٠٠٠ ق.م. بدأت كتل الجليد التي كانت تغطي حتى أواسط فرنسا بسماكة مئات الأمتار بالذوبان تدريجياً، مما أدّى في حوالي ٥٠٠٠-٤٠٠٠ ق.م. (زمن آدم الرسول) إلى ارتفاع مناسيب مياه البحار والمحيطات قرابة ٢٠٠م كما يؤكد جميع علماء المناخ في العالم اليوم (انظر الصور: ١١-١٤). لقد تقدمت مياه بحر العرب نتيجة لذلك، وخلال عشرة آلاف سنة لتغطّي منطقة ما يُدعى اليوم بالخليج العربي مغرقة تحتها جنة العبيدين والسومريين دافعة بهم إلى جنوب العراق والشواطئ الغربية للهند، كما اندفعت في صدع منطقة البحر الأحمر الهائل لتملأه ولتحدث ضغطاً جديداً هائلاً على جدران القشرة الأرضية المحيطة بالـ"أبسو/أبزو" (المياه الجوفية) في جزيرة العرب من الجانبين، مما أحدث التواءات واهتزازات وزلازل وبراكين أعقبتها تفجرات كبيرة للمياه المنضغطة، فتفجرت بالمياه من كل الفوهات والمنافذ محدثة ذلك الفيضان العظيم"[١].

---

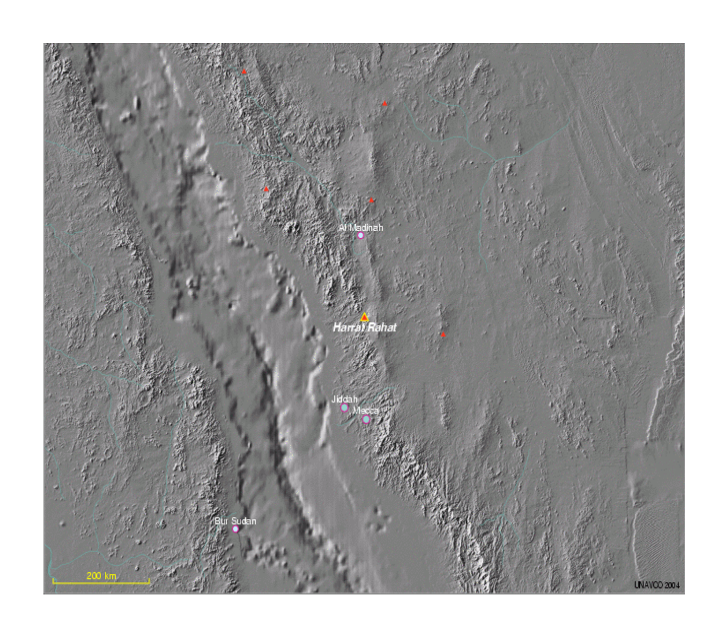
[١] - أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ص٢٤٢.



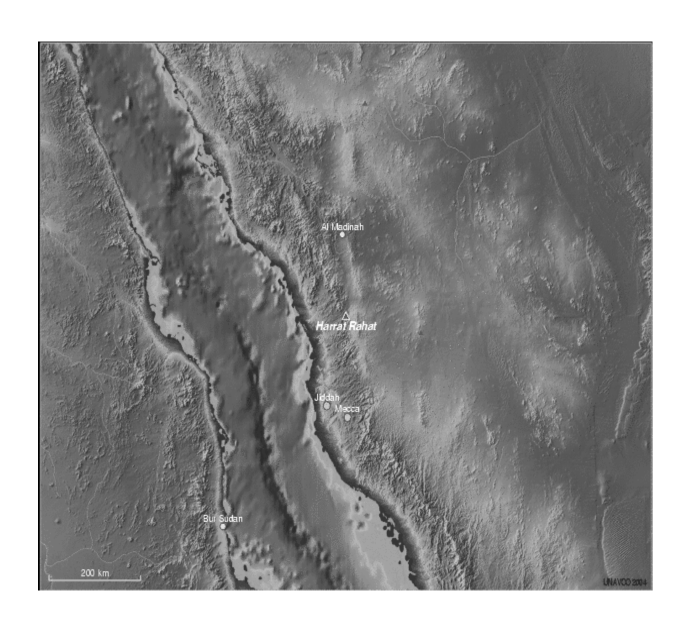
الخليج العربي قبل أن يُغمر بالمياه نتيجة لذوبان الجليد في الحقبة الدفيئة ويسمى قاع الخليج (الصورة: ١١)



(الصورة: ١٢) الخليج العربي مغمور بالماء



(الصورة: ١٣) البحر الأحمر قبل أن يُغمر بالماء قبل آلاف القرون



(الصورة: ١٤) البحر الأحمر مغمور بالمياه

نلاحظ أنّ هذا التعليل العلمي للطوفان:

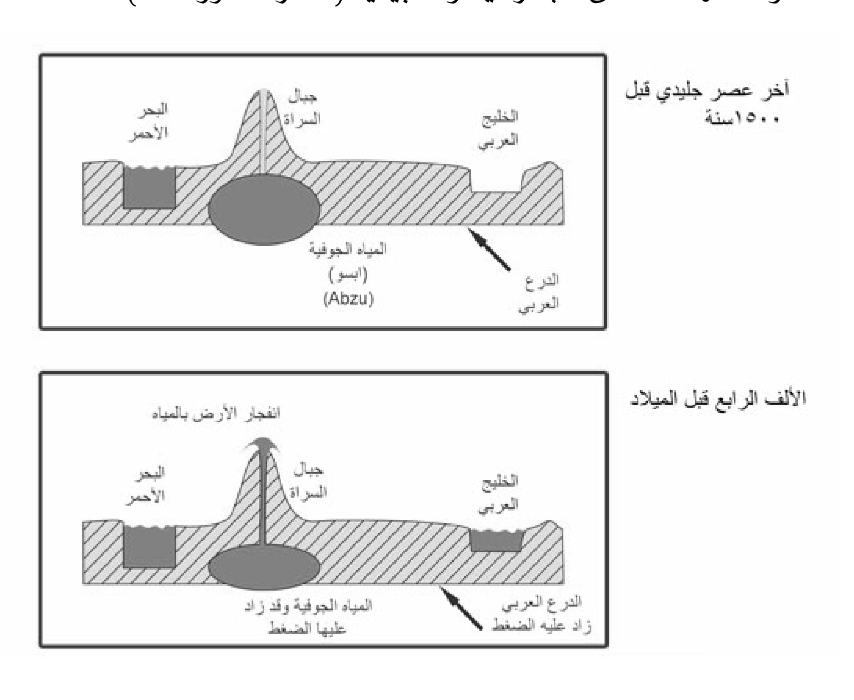
١- يأخذ بعين الاعتبار الحقب المختلفة التي تمرّ بها الأرض وتؤثر على جغرافيتها ومناخها، ويربط بينها وبين التغييرات الكبيرة التي حدثت في طبيعة وجغرافية منطقة الحدث، ويُفسّر ظاهرة التصحّر التي حوّلت جنّات الجزيرة العربية إلى صحراء قاحلة، وغارت أنهارها بسبب نضوب المياه الجوفية التي كانت تمدّها بالماء بعد أن أفرغت الأرض ما في باطنها محدثة ذلك الطوفان العظيم. فلو كان سبب الطوفان مجرد أمطار أو فيضان الأنهار لما فقدت تلك المنطقة خصوبتها الزراعية لأن فيضانات الأنهار تقضي على الزروع بسيلها الجارف بداية، ولكنها تخلّف وراءها أرضاً زراعية خصبة كما هو الحال بالنسبة للعراق ومصر وادي النيل. كما ويحدّد الزمن الذي حدثت فيه تلك التغيّرات التي تبدو متزامنة مع زمن حدوث الطوفان (٣٥٠٠-٣٠٠٠ ق.م.)

٢- ويُفسّر نزوح شعوب تلك المنطقة (الجزيرة العربية) إلى جنوب العراق حاملين معهم ثقافتهم ولغتهم وتاريخهم والحوادث التي مرّوا بها ما أدّى إلى تمازج المعارف والعلوم بينها، والدليل على ذلك شدّة التقارب بين تراثها مشيرة إلى أنها تفرّعت من مصدر واحد. ويؤكّد بعض المؤرّخين أن الشعوب كانت تنطلق من جبال السراة (والتي تعني أعلى كل شيء) في غرب الجزيرة العربية (خزان الشعوب) نحو الشمال وشمال غرب ومن هؤلاء الشعوب: الأكاديون، والعموريّون، والآراميّون، والآشوريّون، ومن بعدهم الأنباط.

٣- كما إنّه أقرب صورة للوصف القرآني للحادثة، حيث تبيّن الآيات أنه كان نتيجة لفتح أبواب السماء، وتفجّر الأرض عيوناً (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)(القمر:١١، ١٢)، وكذلك للأسباب التي ذُكرت في الأسطورة: "**. ونزع الإله إيراكال الأعمدة، ثم أعقبه الإله نينورتا الذي فتق السدود**"، وكما جاء في التوراة: "**انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء**". وهذا يقودنا إلى وضع تصوّر

لكيفيـة حـدوث الطوفـان بنـاء علـى التعليـل العلمـي الـذي ذكرنـاه آنفـاً ومـا جـاء في المصادر الثلاثة.

لم يكن الطوفان فيضاناً للأنهار، ولم يكن بسبب الأمطار الغزيرة، وإنما بسبب ارتفاع منسوب المياه في الخليج العربي والبحر الأحمر وازدياد الضغط على مخزون المياه الجوفية في شبه الجزيرة العربية، هذا الضغط تسبّب في انفجار بركاني (مائي) ما أدّى إلى اندفاع المياه من فوهة أحد قمم جبال السراة الممتدة في غرب الجزيرة العربية، مسبّبا المزيد من التشققات والتصدعات وبالتالي انفجارات مائية أخرى في نفس المنطقة. تلك صورة مبسّطة لكيفية حدوث الطوفان كما قرأناها من المصادر الثلاثة وتدعمها الحقائق الجغرافية والطبيعية (انظر الصورة: ١٥).



رسم توضيحي لكيفية حدوث الطوفان (الصورة: ١٥)

ولكي نعطي صورة واضحة ومفصّلة سنحدّد معاني بعض الألفاظ التي تعين على تصوّر كيفية حدوث الطوفان كأقرب ما يكون للواقع مستعينين بالمصادر الثلاثة؛ أول تلك الألفاظ: (فار التنّور) الذي اعتُبر علامة على بداية الطوفان، ثم (فتحنا أبواب السماء)، وأخيراً (فجّرنا الأرض عيوناً)، وما يوازيها في التوراة والأسطورة.

فَارَ التَّنُّورُ:

إنّ فوران التنّور كان علامة على بداية الطوفان: (**فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**)(المؤمنون: ٢٧)، ولقد ذكرنا أنّ التنّور هو أحد الجبال البركانية في سلسلة جبال السراة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر غرب الجزيرة العربية، وأن كلمة (تنّور) تعني الجبل المتفجّر، الجبل المتوقّد العظيم، الجبل البركاني، هذا الجبل (التنور) يقع قرب منطقة سكنى نوح (ع)، ولقد استخدام القرآن لفظ (فار التنّور) ليؤكّد على أنّه كان يقذف مياهاً وليس نيراناً، عن علي (ع): "كل مفجِّر ماء تنّور"، وقال أبو جعفر: "وفوران الماء سَوْرة دفعته؛ يقال: فار الماء يفور فوَرَانا وفَوْرا؛ وذاك إذا سارت دفعته"[١]. وقيل أن معنى "فار التنّور": أن أشرف الأرض وأرفعها فار منه الماء[٢]. وهو: "..(الكور) الذي انبثق من أعماق المحيط البدئي بعد تكوّن المحيطات ليقذف بحممه مكوناً جبلاً عالياً من الحمم والحجارة والنار والدخان والذي صار يُدعى بـ"جبل السماء والأرض"، كما إنّهم يصوّرونه ثقباً هائلاً يصل ما بين سطح الأرض وبين البحر الأول ... وبقى ثقبه النافث في عمق الجبل متصلاً بمياه المحيط البدئي مما جعله في أحقاب لاحقة يفور بالمياه في زمن الطوفان"[٣]، وربما يكون هو المعنيّ به في التراث بـ(تحرّك ينابيع الغوط الأكبر)؛ فقد جاء في تفسير الطبري: "فلما دخل وحمل معه

---

[١] - الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، ج١٢، ص٥٣.

[٢] - الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، ج١٢، ص٥٢.

[٣] - أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم – أ – المركز**، ص ٩٤.

من حمل، تحرّك ينابيع الغوط الأكبر، وفتح أبواب السماء"[1]، أي أنّ العلامة والتي قد تكون الأبخرة التي تصاعدت بصورة دخان ممتدّ في السماء نتيجة لارتفاع الضغط على المياه الجوفية في منطقة الحدث سبقت تدفّق المياه من فوهة الجبل، وهي المعبّر عنها في التوراة بـ"انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم"، وفي الأسطورة: " **ونزع الإله إيراكال الأعمدة**". (انظر الصورة: ١٦)



صورة لجبال بركانية تتصاعد منها أبخرة إيذاناً بانفجار بركاني (الصورة: ١٦)

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ:

إن أول صورة ترد إلى ذهن القارئ عندما يقرأ تعبير (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**)(القمر:١١) هي صورة أمطار غزيرة تنهمر من السماء، ولكن إذا ما استحضرنا ما توصّلنا إليه من نتائج بأن الطوفان لم يكن بسبب أمطار غزيرة ولا بسبب فيضان الأنهار، وإنما كان حدثاً مهولاً نتيجة للظروف المناخية التي تمرّ بها الكرة الأرضية على مدى عشرات الآلاف من السنين فأحدثت تغيّرات جغرافية ومناخية هائلة في المنطقة التي تعرّضت لهذه التغيّرات وما حولها من مناطق. لو استحضرنا هذه الحقائق عند محاولتنا التعرّف على كيفية حدوث الطوفان العظيم

[1] - الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، ج١٢، ص٤٩.

لاستطعنا أن نرى صورة مغايرة لما ترسمها أذهاننا بناء على قراءة خاطئة لألفاظ القرآن الكريم، سنرسم صورة سريعة لكيفية حدوث الطوفان كما تصوّرها ألفاظ القرآن الكريم بإيجاز شديد في قوله تعالى: (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)(القمر:١١، ١٢) ثم نفصّل ذلك بالرجوع إلى المصادر الثلاثة لأنها تشترك جميعاً في رسم الكيفية التي حدث فيها الطوفان. كما ذكرنا آنفاً أنّه حين اكتمل الانحسار الجليدي الذي تسبّب في ارتفاع منسوب المياه في الخليج العربي والبحر الأحمر ما أدّى إلى زيادة الضغط على المياه الجوفية في شبه الجزيرة العربية، فانفجرت فوهاتُ جبال السراة البركانية، عن ماء شديد منهمر، وتفجّرت الأرض عيوناً، فأغرق قسماً كبيراً من شبه الجزيرة العربيّة، وتسبّب في تصحّرها بعد أن كانت جنات وعيون.

قبل أن نفصّل في شرح الآيات القرآنية الكريمة التي تصف كيفية حدوث الطوفان سوف نقرأ وصف الطوفان من التوراة والأسطورة لما وجدنا من تقارب شديد بينها جميعاً:

تصف التوراة كيفية حدوث الطوفان بجملة: "**انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء**"(تكوين ١١:٧)، بداية (انفجرت ينابيع الغمر العظيم)، ثم (وانفتحت طاقات السماء)، ولقد ذكرنا أن أحد معاني لفظ (طاقات السماء) في التوراة هو (المدخنة) التي عادة ما تكون مخروطية الشكل وقريبة الشبه من الجبال ذات الفوهات البركانية، وهذا يذكّرنا بـ(التنّور) الذي تصاعدت الأبخرة منه علامة على بداية الطوفان، ونقرأها في النسخة الإنجليزية هكذا:

the same day were all the fountains of the great deep broken up, and the windows of heaven were opened.

لاحظ كلمة fountains التي تعني: نافورة أو نبع ماء أو بئر استخدمت لتعبّر عن المياه الجوفية، ولفظ طاقات السماء عبّر عنها بنوافذ الجنة، أو حسب المعاني المدرجة في التفسير: المداخن الشامخة حيث تُرجمت windows إلى chimney والسماء إلى heaven وذُكرت لها معاني أخرى كالجو، وكل ما علا وشمخ، والجنة، وقد ذُكر معنى آخر لطاقات السماء في النسخة الإنجليزية وتعني فوهات إما أن تخرج منها أبخرة

ودخـان أو تخـرج منـها الميـاه[1]. سـنقرأ الـنص الـذي يصـف كيفيـة حـدوث الطوفـان بترجماته المختلفة:

In the six hundredth year of Noach's life, in the second month, on the seventeenth day of the month, on the same day all the fountains of the great deep were burst open, and the (heaven) sky's windows were opened. (Genesis 7: 11)

نلاحظ أنّ هيفن/هيذن أو سّكاي يرمـزان لأمـر واحـد هـو مصـدر مـاء الطوفـان، ومع أنّ كليهما عربيان قديمان (هيذن أي حضن، حيث الضاد تُلفظ دال وذال، والحـاء تُبـدل هـاء) وهـو المحضـن أو المهـد الأول للإنسان والمحضـن الأخـير لأرواح الأبـرار، أي الجنـة – أمّـا سـكاي فـتعني سّقاي/ سـگاي، أي مصـدر السـقي سـواءً كانـت أعـالي الجبـال كمصـدر للأنهـار أو سـحب السـماء كمصـدر للغيـث والمطـر، إلا أنّ مـا يُسـمّى بـ"العبرية" تُسميها "شمه" أي "سما" أو "شمايم" أي سماوات.

تُرجمت الفقرة السابقة هكذا:

فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ.

وبما يسمى "العبرية" هي:

شيش مية شنة نوخ خياه، شاني خدش، شبع عسر يوم خدش، خدش يوم كل مايان رب تهوم فقع، عروبا شما فتخ.

وبالعربي الواضح:

سادس مئة سنة نوح حياة، ثاني حدث، سبع عشر يوم حدث، حدث يوم كل مياه رب تهوم فقع، غَروب سما فتح.

فالعبارة تصبح باللغة الفصحى (وما بين القوسيّن مجرّد روابط للكلام):

---

[1] - sluice (with openings for water).

(في) **سادس مائة سنة لحياة نوح**، (في) **ثاني حدَث** (أيّ شهر)، (في) **سابع عشر يوم الحدث** (أي الشهر)، **حدث** (في ذلك الـ) **يوم** (أنّ) **كل مياه ربّ التهوم** (سيّد الأعماق) **فقعت** (انفجرت بصوت)، **وانفتح غَروب** (دلْوُ) **السماء.**

ونجد صورة قريبة من تلك في الأسطورة فتعبّر عن بداية الطوفان بـ(**نزع الإله "إيراكال" الأعمدة**)، ونزع الأعمدة هنا تعبير عن تحطّم دعائم سدّ العالم الأسفل بما يشبه ثورات بركانيّة وإطلاق سحب غازات سوداء ورعود من الجبال المتوقّدة "إيراكال" وعوضاً عن حمم البراكين تفجّرت مياه العمق لتفور إلى عنان السماء (**ثم أعقبه الإله "ننورتا" الذي فتق السدود**)، فتكون الصورة كالتالي: أنّ المياه المحبوسة في باطن الأرض تحت ضغط عالي وجدت لها متنفّساً للخروج فتصاعدت الأبخرة من فوهة الجبل البركاني المتوقد، ثم تبع ذلك اندفاع الماء من جوف الأرض والتي عبّر عنها بفتق السدود.

إن النسخة الإنجليزية من أسطورة "أتراحاسس" تعبّر عن الفكرة بصورة أكثر دقة ووضوحاً فتشبّه فتق السدود بالماء المندفع هارباً من السدّ، ثم ارتفاع المطر واندفاعه نحو الأسفل، لاحظ التعبير "ارتفاع المطر" تعبيراً عن المياه الخارجة من أسفل (جوف الأرض) إلى أعلى (السماء)، ولو كانت أمطاراً لعبّر عنها بالنزول لا الصعود، ثم يصف نفس المشهد بتعبيرات مختلفة، ولكن بنفس الترتيب فيبدأ الطوفان بتحطيم الأعمدة من قبل الإله نرگال[1]، ومن ثم يخرج الماء من الأسفل مندفعاً نحو الأعلى، وبعد ذلك يتدخل (نينورتا) "بفتق السدود".

Then like pushing waters escaping from a (dam)[2]

ثم كالماء المندفع هارباً من السدّ

Above came rain pushing down to us below

ارتفع المطر مندفعاً نحو الأسفل

Nergal from his underground home did break the (posts)[1]

---

[1] - كلمة "نرگال" مكونة من كلمتين (نار) و (جلّ) أي النار العظيمة، أو كما يسميّه معرّبو الأساطير (إله العالم السفلي).

[2] - السد أو مياه السد.

نرگال حطم الأعمدة من بيته الكائن تحت الأرض

And up water from below did come

وخرج الماء من الأسفل

Ninurta let watery chaos[2] (abound)[٣]

نينورتا جعل مياه الغمر الأولى تجتمع

نعود لوصف القرآن الكريم للطوفان لنشرح التعابير التي استُخدمت تعبيراً عن كيفية حدوثه: إنّ تعبير (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**) يصف بداية الطوفان ولقد بيّنا فيما سبق أن علامة الطوفان كانت فوران التنّور يعني (انفجار بركان مائي)، وعلامة الشيء دليل عليه، فعلى سبيل المثال بعض أنواع السحب تُنبئ بهطول الأمطار، كما جاء على لسان قوم هود حين رأوا السحب في السماء: (**قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**)(الأحقاف:٢٤)، لذا فإن "فتح أبواب السماء بماء منهمر" هنا قد يعني شيئاً آخر غير "إنزال الماء من السماء" والذي استُخدم في القرآن الكريم دائماً ليعبّر عن رحمة ونعمة، وغير (المطر) بالمعنى المعهود لدينا، وغير (المطر) المستخدم في القرآن[٤]، وعليه إذا كان علامة الطوفان هو "فوارن التنّور" فمن الطبيعي أن تكون مياه الطوفان التي أغرقت المنطقة ذات علاقة بهذه العلامة، ولكي نعبّر عن الفكرة

---

(١) – الأعمدة.

(٢) – مياه الغمر الأولى التي بدأت مع تكوين الأرض حيث "العماء والسكون".

(٣) – يغمر.

(٤) – جاءت كلمة (مطر) في القرآن في موردين لتعبّر عن عقوبة متمثلة في إرسال حجارة كما في: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)(هود: ٨٢) و (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ)(الذاريات: ٣٣)، وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن) لآية الذاريات: "لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض"، وكذلك في تفسير آية هود: "والصورة التي يرسمها السياق هنا لهذه النازلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل"، فنلاحظ أن كلمة مطر هنا استخدمت لتعبر عما يخرج من الجبال البركانية من حجارة وحمم وليس مما ينزل من السماء بمعنى الفضاء الواسع الذي يحيط بالأرض.

بصورة أوضح علينا أن نتعرّف على معاني كلمة (السماء) واستخدامها في القرآن الكريم؛ أما أصل الكلمة مشتق من سما يسمو، وهذه الكلمة لها معاني كثيرة مثل: "كلّ ما علا، السقف، ظهر الفرس، المطر، السحاب، العشب (وسمي كذلك لارتفاعه عن الأرض)، ومسكن أرواح الأبرار"[1]، فالمعنى الجامع لكلمة السماء هو (كل ما علا وارتفع) ولقد تكرّر لفظ (السماء) في القرآن الكريم أكثر من مئة مرّة، واستُخدمت لتعبّر عن معاني مختلفة مثل الفضاء الواسع الذي يحيط بالأرض، والسقف، وكل ما يعلو، وقد فرّق بين السماء والسموات كما في قوله تعالى: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**)(البقرة:٢٩)، وفرّق بين السماء وجو السماء كما في قوله: (**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ**)(النحل:٧٩) وغير ذلك، ولكن أصبح معنى (الفضاء الواسع الذي يحيط بالأرض) أول معنى يرد إلى أذهاننا إذا ما قرأنا كلمة (سماء) لأنه هو الدارج في استخدامنا اليومي أما المعاني الأخرى فلا نذهب إليها، فلو تأمّلنا قليلاً في (مسكن أرواح الأبرار) وهو أحد معاني السماء، واستحضرنا جنّة آدم، بيت الآلهة، المغارة المقدّسة، وهي كلها أسماء للجنة الأرضية المخبوءة تحت جبال السراة حيث (مسكن أرواح الأبرار)[2]، لوجدنا أن أقرب معنى لأبواب السماء هنا هو (الفوهات التي فارت منها مياه الطوفان)، (فالسماء) هنا لا تعني ما نشاهده فوقنا كقبّة زرقاء محيطة بالأرض، بل الجبال العالية التي اندفعت منها المياه الجوفية لتغرق الآثمين من قوم نوح، وهذا لا يمنع أن المياه كانت منهمرة من (السماء) لأنها خرجت مندفعة من الفوهات البركانية إلى ارتفاعات عالية في السماء ثم انهمرت جارفة معها كلّ ما تصادفه من زروع وبيوت وحيوانات وبشر. إن خروج المياه من الفوهات البركانية تبعه تشقق الأرض واندفاع الماء من باطنها فاجتمع الماء المنهمر من السماء بالماء الخارج من تشققات الأرض مكوّناً موجاً كالجبال. إذن، مياه الطوفان التي أغرقت مساحات شاسعة من شبه الجزيرة العربية كان مصدرها المياه الجوفية، ولعلّه لهذا جاء التعبير القرآني " **يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**" فنسب الماء للأرض ولم يقل يا أرض

---

[1] - **المنجد في اللغة والأعلام**، معنى كلمة (سما).

[2] - راجع بحث: **جنة آدم**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

ابلعي الماء، ليبيّن أن مياه الطوفان التي أغرقت المنطقة كان مصدرها (الأرض) فقط وليس السماء (المطر). وقد اشترك تعبيرا (يا أرض ..) و (يا سماء ..) بأمر واحد (**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**)(هود :٤٤) فلو كانا حدثين منفصلين لاختُص كلٌ منهما بأمر خاص به، ولو بدأ بأمر السماء بأن تقلع ولم يأمر الأرض أن تبلع ماءها لما تمكّنت السماء من الإقلاع لأن الأرض لازالت تخرج ماءها، فكلا الأمرين ضروريان وبالترتيب الذي جاء به لارتباط الحدثين ببعضهما البعض فمياه الأرض (الجوفية) ترفد مياه السماء (المتدفّقة خارجاً إلى أعلى)، ولو لم تؤمر السماء (الجبال) بالإقلاع لربما واصلت قذف الحمم المخبوءة في باطنها لأن هذه الجبال متّصلة بخزّانين: خزّان الجحيم (نار جال)، وخزّان الماء (الأبسو)، فجاء أمر الإقلاع للسماء مطلقاً بلا تحديد، بينما الأمر الموجّه للأرض كان محدّداً بأن تبلع ماءها وهذا نتج عنه أن غارت المياه فتصحّرت المنطقة وشحّت مياه الأنهار وقلّت مناسيبها .

والصورة مشابهة كذلك في كيفية انتهاء الطوفان، ففي التوراة: "**وانسدّت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء**"(تكوين ٨ :١، ٢)، لاحظ تسلسل الحدث مرّة أخرى: فبدايةً انسدّت ينابيع الغمر وطاقات السماء فكان هذا سبباً لامتناع المطر من السماء (المطر هنا يعنى انهمار مياه الجبال المرتفعة في السماء عالياً)، إن هذه العبارة تدل على أن مصدر المياه المنهمرة من السماء هي ينابيع الغمر فبمجرد أن انسدّت هي أُغلقت طاقات السماء فامتنع المطر من الجبل، نلاحظ المقابلة في الألفاظ:

يا أرض ابلعي ماءك = وانسدت ينابيع الغمر

ويا سماء أقلعي = و(انسدت) طاقات السماء

هكذا تكتمل الصورة من الأسطورة والتوراة والقرآن الكريم لتؤكّد على أن المياه التي أغرقت منطقة الحدث لم تكن أمطاراً بل مياه جوفية اندفعت من الجبال البركانية وفجّرت الأرض فالتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض ليُغرقوا كلّ الآثمين في تلك المنطقة ويُنجّى نوح وأهله وذريته ومن معه في الفلك المشحون.

الخلاصة

لقد شغلت حادثة الطوفان حيّزاً من آيات القرآن الكريم وجاءت مفرّقة في أكثر من عشر سور كريمات فرسمت لنا صورة مفصّلة عن الحادثة ودقائقها: كيف حدثت، ولماذا، وأين، ومن نجا ومن أُغرق، فتعرّفنا على تلك التفاصيل واستعنّا بما جاء في التوراة والأساطير لاستكمال الصورة ولاعتقادنا أنّه لا يكفي أن نثبت أن الطوفان لم يكن عالمياً، ولا يُغني الأمة أن تعرف أن جبال أرارات ليست في أرمينيا بل لابدّ أن تعرف أين هي، ولماذا اختلفت المصادر في تسمية الموقع الذي رست عليه السفينة، وكيف اتّفق أكثر من قال بمحدوديّته على أنه كان في العراق؟ هذه الأسئلة وغيرها أُجيب عليها في هذا الفصل فخلصنا إلى أن القرآن يؤكّد على أن دعوة نوح (ع) لم تكن عالمية وبالتالي تنتفي حجة من قال بعالمية الطوفان بناء على اعتقاده بعالمية دعوة نوح، ثم عولجت الآيات التي ذكرت الناجين والمغرقين فتبيّن أنهم المتواجدون في منطقة الحدث لا كلّ من على كوكب الأرض، ثم فُسّرت الأسباب الطبيعية للطوفان وكيفية حدوثه فوجدنا توافقًا غريباً بين المصادر في تلك التفاصيل.



(الصورة: ١٧) حوض الطوفان في الجزيرة العربية

الفصل الثالث

مناقشة آراء المفسّرين

أولاً- مناقشة آراء مفسّري القرآن الكريم

سرنا في تفاصيل حادثة الطوفان مع الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت الحادثة، وخلصنا إلى أن الطوفان لم يشمل الأرض جغرافيا أو بشرياً، بل كان محلياً، والقوم كانوا محليين، ولقد توصّلنا إلى هذه النتيجة بالاستدلال بمجموعة كبيرة من الآيات القرآنية الكريمة، وتدرّجت الأدلة القرآنية بين المباشر وغير المباشر، والبسيط والمعقّد، والسؤال الذي نقف أمامه حائرين: كيف فُسّر القرآن على مدى مئات السنين وبجهد عشرات من عمالقة التفسير ولم ينتبه إلاّ القلائل منهم إلى تلك الحقيقة؟ وحتى من تنبّه إليها لم يحسم النتائج ولم يأتِ بأدلّة قاطعة بحيث يقطع كل شكّ في القضية، فكانت النتيجة أن اتّفق معظم المفسّرين على عالمية الطوفان، وبقي قليلٌ منهم متردّداً بين عالميته ومحدوديته، وقليل جدّاً منهم ممن جزم بأنه لم يكن عالمياً، وهذا القليل رُدّ عليه فأُسكت هذا الهمس الخافت من صوت الحق! فكيف فُسّر القرآن حتى كانت تلك النتيجة؟

أ - عالميّة رسالة أولي العزم

اعتمد صاحب تفسير الميزان لإثبات عالمية الطوفان على الاعتقاد بعالمية دعوة نوح (ع) بصفته أحد أنبياء أولي العزم (ع) وإثبات ذلك. لقد استدّل على عالمية الطوفان من خلال تفسيره للآية الكريمة: (**وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَى قَوۡمِهِ**) ليثبت أن أنبياء أولي العزم كانت دعوتهم عالمية فذكر: "أن نوحاً (ع) أول أولي العزم، أرسله الله إلى عامة البشر بكتاب وشريعة.."، و"هو الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته" واستدل على ذلك بقوله تعالى: "وجعلنا ذريته هم

الباقين"[1]. بعد هذه المقدّمة دلّل في بحث مفصّل على عالمية رسالته (ع) فبدأ بطرح رأي كل من الفريقين، وأكّد على أن الشيعة يؤمنون بعموم رسالته بدليل ما ورد عن أهل البيت (ع) بأن نوحاً من أنبياء أولي العزم وأنهم مبعوثون للناس كافة، ثم بيّن أن من أهل السنة من قال بعموم رسالته مستندين إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الأرض كقوله تعالى: (**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**)(نوح:٢٦)، وقوله: (**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**)(الصافات:٧٧)، ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن رسول الله (ص): "وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة"، ثم يردّ على هذا الرأي ويفنّده، فيخلص إلى نتيجة مؤكّدة بقوله: "فقد بان بأن نبوة نوح (ع) كانت عامّة، وأن له كتاباً وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف، وأن كتابه أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة"، ويضيف: "وظهر أيضاً ما يدل من الروايات على أن عدم عموم دعوته (ع) مخالف للكتاب، وفي حديث عن الرضا (ع): "إن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي"[2].

نقف عند بعض مقاطع ما جاء في كتاب الميزان لنزن ما نقرأ:

١. جاء في تفسير الآية ٢٣ من سورة المؤمنون "**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**": (فالمراد بقومه أمته وأهل عصره عامة)[3] فاعتبر كلمة (قومه) في الآية هم أمته وأهل عصره عامة!! وهذا ما نختلف معه فيه لأن ألفاظ القرآن الكريم ليست فضفاضة وعامة بحيث تصبح (قومه) مرادفة لـ(أمته) ولـ(أهل عصره عامة) بل ألفاظه دقيقة ومنتقاة بحيث تؤدّي الغرض المراد منها تماماً بلا زيادة أو نقصان، فقومه يعني قومه، وأمّته تعني أمّته، ولا يمكن أن يعنيان "أهل عصره عامة"، وإذا اعتبرنا أن هذا دليل

---

[1] – الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٠، ص٢٥١.

[2] – الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٠، ص ٢٦٤.

[3] – الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٥، ص ٢٧.

على عالمية رسالة نوح (ع)، إذاً لأمكننا أن نقول أن هوداً وصالحاً وشعيباً ولوطاً كذلك كانوا مرسلين لأهل عصرهم عامة لأن القرآن يذكرهم جميعاً بأنهم أُرسلوا لأقوامهم.

٢. إن ما أثبته من عموم دعوته (ع) كما ينافي الآيات القرآنية الكريمة كذلك ينافي قول رسول الله (ص): "وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة"، ومع هذا لم يُحلّ هذا الإشكال والتعارض بين أطروحة عالمية دعوة نوح (ع) وحديث رسول الله (ص)، في الواقع أن هذا الحديث يثبت أن رسالة محمد (ص) هي الرسالة العالميّة الوحيدة.

٣. استشهد صاحب الميزان بحديث الرضا (ع): "إن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي" كدليل على عموم رسالة نوح (ع)، وأغفل حديث رسول الله (ص): "وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة" ربما لتوهّم تعارض أو تناقض بينهما، وفي الواقع لا يوجد أي تناقض، فقول الرضا (ع): "إن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب" دليل على أن شرائع أنبياء أولي العزم كانت خاصة لزمانهم ولأقوامهم، فلو كانت شريعة كل منهم عامة للجميع فما الداعي لوجود خمسة كتب وخمس شرائع ولاكتفوا بكتاب واحد وشريعة واحدة، بينما نجد في قوله "ونبوّتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي" حلّ لما يوهم بأنّه تعارض فدقة ألفاظه (ع) تبدد هذا التعارض الظاهري، فالنبوّة هي القوانين الكونية والسنن الإلهية، وهي العلوم والمعارف التي أتى بها الأنبياء، وهي الحقائق الموضوعية المطلقة خارج الوعي الإنساني كالموت، والبعث والساعة، وسنن النصر والهزيمة، وكقوانين الجاذبية والفيزياء وغيرها، فهي عامة وليست حكراً على قوم دون قوم ولا على زمن دون آخر، بل هي تراكمية تتطوّر على مرّ الزمن فاللاحق يستفيد من علوم السابق، والشرائع هي ما يُعبَّر عنها بالرسالة أو الأحكام وهي خاصة لمن أُرسلت إليهم، لأنها تُشرَّع لمناسبة ظرفها وفيها الحلال والحرام، وفيها العبادات والوصايا، نجد هذا واضحاً في الآية: (**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**)(المائدة:٤٨) وبهذا يحلّ الإشكال وتتعزّز فكرة أن الشرائع التي يأتي بها الأنبياء خاصة بأقوامهم الذين أُرسلوا إليهم وليست للناس عامة، وقد

استنكر القرآن الكريم على اليهود لأنهم أرادوا أن يحتكموا بحكم الإسلام وعندهم التوراة ليخفّفوا على أنفسهم: (**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ**)(المائدة: ٤٣)، وعليه فإن قوله: (عدم عموم دعوته مخالف للكتاب) لا دليل عليه، ولقد وجدنا – فيما تقدّم – أن العكس هو الصحيح.

٤. أما قوله عن نوح (ع) أنّه هو الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان فتلك حقيقة لا غبار عليها، ولكن لا بمعنى: (إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته)، ولكن بمعنى أنه لولا نوح (ع) ودعوته المخلصة وجهوده المضنية وتحمّله هو وأهله لأذى قومه لَمُسخت السلالة الإنسانية وقُضي عليها ولطغى الهمج والهمجية، فنحن ندين له بالمحافظة على نقاء السلالة الإنسانية فلولاه لما عاد هناك نظام أسري، ولعادوا لارتكاب الفاحشة وسفك الدماء، ولأصبح ارتكاب الرذيلة هو الأصل، ودرب الفضيلة يُعاقب عليه، ولانتهينا بصنف من البشر أقل ما يقال عنهم (طغاة) أو (جبابرة) أو كما قال (ع) وحكاه القرآن: (**لا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**)(نوح:٢٧)، ولتكرّرت الصورة القاتمة التي عبّرت عنها الآيات: (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**)(البقرة:٣٠)، فهو الأب الثاني للإنسانية بهذا المعنى لا بمعنى أن السلالات كلها ترجع إلى أبنائه الثلاثة الذين نجوا من الطوفان.

ب- "وفار التنّور"

سوف نقتبس مقطعاً من تفسير القرطبي في معنى التنّور ليقرأه القارئ بتأنّي ثم نعلّق عليه. يقول القرطبي في تفسير (وفار التنور): "اختلف في التنور على أقوال سبعة:

الأوّل: أنّه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة؛ وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك.

الثاني: أنّه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنوراً من حجارة؛ وكان لحواء حتى صار لنوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك. وأنبع الله

الماء من التنور، فعلمت به امرأته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور؛ فقال: جاء وعد ربي حقا.

الثالث: أنّه موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضا.

الرابع: أنّه طلوع الفجر، ونور الصبح؛ من قولهم: نوّر الفجر تنويرا.

الخامس: أنّه مسجد الكوفة؛ قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه علما لنوح، ودليلا على هلاك قومه.

السادس: أنّه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة.

السابع: أنّه العين التي بالجزيرة "عين الوردة" رواه عكرمة. وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وإنّما كان بالشام بموضع يقال له: "عين وردة" وقال ابن عباس أيضا: (فار تنور آدم بالهند). قال النحاس[1]: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنّ الله عز وجل أخبرنا أنّ الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: (**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجّرنا الأرض عيونا**)(القمر:١١، ١٢). فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران الغليان. وقيل: معنى "فار التنور" التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم: حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب. والوطيس التنور. ويقال: فارت قدر القوم إذا اشتد حربهم"[2].

ملاحظات على تفسير القرطبي:

١. بعد أن يذكر القرطبي (رحمه الله) سبعة معاني مختلفة للتنّور يقول: "وهذه الأقوال ليست بمتناقضة"، فهو يرى أن وجه الأرض، وتنّور الخبز، وموضع اجتماع الماء

---

[1] - أبو جعفر أحمد النحّاس، لغوي وأديب ومفسّر، تعلّم على الزجّاج والأخفش الأصغر وابن الأنباري (**المنجد في اللغة والأعلام**، ص ٧٠٧).

[2] - القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص٣٠.

في السفينة، وطلوع الفجر، ومسجد الكوفة، وأعالي الأرض، والعين التي بالجزيرة، لا تناقض بينها، بينما في الواقع لا يوجد رابط (واضح) بين هذه المعاني، بل هو التناقض بعينه فكيف نجمع بين وجه الأرض وتنور الخبز فهذا فتحة في ركن البيت وذاك وجه الأرض، ثم ما علاقة هذين المعنيين بالمعنى الثالث (موضع اجتماع الماء في السفينة)؟ فوجه الأرض، وتنور الخبز، وموضع اجتماع الماء في السفينة كلها معاني لا تناقض بينها كما يستنتج القرطبي (رحمه الله)، وكذلك لا يرى تناقضاً بينها وبين مسجد الكوفة، وأعالي الأرض، والعين التي بالجزيرة!! ولا يرى تناقضاً بين تلك المعاني الستة التي تعبّر عن أسماء مواقع وأمكنة وبين معنى طلوع الفجر الذي يُعبّر عن زمان، لو أتى بهذه المعاني السبعة وغيرها ثم تركها دون أن يختمها بقوله (ليست بمتناقضة)، ولو تركها مفتوحة للقارئ ، ولكن بجملته الختامية تلك ختم على عقل القارئ وتركه مشوّشاً.

٢. الأغرب من تلك النتيجة السريعة التي قفز إليها هو الاستدلال الذي استدل به على تلك النتيجة نقلاً عن (النحاس) في قوله: "لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض"، فما علاقة هذا الاستدلال بتلك النتيجة، إن عدم وجود تناقض – حسب قوله – بين تلك المعاني لا يُعلّله لأن الله أخبرنا أن الماء جاء من السماء ومن الأرض، كما إنّ الاستشهاد بالآية الكريمة (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**)(القمر:١١) بعد هذا القول مباشرة ليس صحيحاً، وإنما هو أسلوب لإعطاء الرأي المطروح قوّة بدعمه بآية كريمة وكأن كل ما قيل قبله بديهي ولا داعي لإطالة النقاش فيه. إن المقدّمة الخاطئة تؤدّي إلى نتيجة خاطئة بغض النظر عن صحة الاستدلال، فكيف إذا كانت المقدّمة خاطئة وطريقة الاستدلال تفتقر إلى المنطقية؟ كما أن الأسلوب القاطع بصحة الرأي يجعل القارئ ينهزم أمام هذه الآراء المحسومة فلا يجرؤ على مناقشتها فكيف بتفنيدها أو رفضها.

٣. وقوله: فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة، محاولة لإيجاد رابط بين تلك الأقوال، وهذا حسن ولكن لا أعتقد أن القارئ عرف من خلال كل تلك الأقوال ما هي العلامة، وما مواصفاتها، هذا إن لم يخرج أكثر حيرة مما دخل، فلو افترضنا أن القارئ لجأ لكتاب التفسير ليعرف معنى التنور الذي كان علامة على بدء الطوفان

فما هو المعنى الذي سيخرج به لأن الآراء عرّفته مرة بالفجر، ومرة بتنور الخبز، ومرة بأعالي الأرض ومرة بوجهها!

٤ . كذلك في قوله: "معنى (فار التنور) التمثيل لحضور العذاب" يوحي للقارئ أن التنور ليس علامة حقيقية على بدء الطوفان، إن هو إلاّ تمثيل، مع أن الآيات واضحة على أن من هذه العلامة تبدأ ساعة الصفر فيأتي الأمر الإلهي لنوح (ع) بأن يحمل معه من كل زوجين اثنين: (**فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ**)(المؤمنون:٢٧)، إن أمثال هذه الأقوال تشوّش القارئ وتبعده عن جو الكارثة الحقيقي الذي يحاول القرآن الكريم أن ينقله إليه بتصويره أبلغ تصوير وأدقّه، فلو اكتفى القارئ بالاعتقاد إنّ فوران التنّور مجرد تمثيل لحضور العذاب لما استطاع أن يتصوّر حجم الكارثة ولفقد التفاعل مع الحادثة بما يراد له أن يأخذ العبرة منها.

ج - مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

جاء في تفسير ابن كثير: "وقال ابن أبي حاتم حدّثنا أبي حدّثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني الليث حدّثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله (ص) قال: "لمّا حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد؟ فسلّط الله عليه الحمّى فكانت أوّل حمّى نزلت في الأرض ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تُفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرّة منه فتخبّات الفأرة منها"[(١)]!!

وقريب منه في تفسير القرطبي: "وروي عن ابن عباس قال: (لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها

---

(١) – ابن كثير، **تفسير القرآن**، ج٢، ص٣٩٧.

سنوران فأكلا الفأرة. ولما حمل الأسد في السفينة قال: يا رب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغله؛ فأخذته الحمى؛ فهو الدهر محموم. قال ابن عباس: (وأول ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزة، وآخر ما حمل حمل الحمار، وتعلق إبليس بذنبه، ويداه قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعد فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع أن يدخل، فصاح به نوح: ادخل ويلك فجعل يضطرب؛ فقال: ادخل ويلك! وإن كان معك الشيطان، كلمة زلت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل. ثم إن نوحا رآه يغني في السفينة فقال له: يا لعين ما أدخلك بيتي؟! قال: أنت أذنت لي؛ فذكر له؛ فقال له: قم فأخرج. قال: ما لك بُدٌّ في أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك"[1]!!

ربما أطلنا على القارئ في الاقتباس ولكن لكي يعرف القارئ حجم المشكلة وما تحمله بعض كتب التفسير من روايات يرفضها العقل السويّ ويستهجنها الذوق السليم، فلسائل أن يسأل متهكماً: (ومن سيأكل روث الخنزير بعد ذلك؟)، ولو سأل آخر مستهزئً: (هل كان نبي اللّه نوح (ع) يتسلّى حين غمز ذنب الخنزير فأخرج فأراً وفأرة ليضطر بعد ذلك أن يُوحى إليه ليمسح جبهة الأسد ليخرج السنور ليأكل الفأرة؟!)، وغيرها من أسئلة قد لا يلام القارئ لو سألها استنكاراً واستغراباً.

لسنا بحاجة إلى أن نقف طويلاً مع هذه الرواية لتحليلها وكشف الزيف الذي ينضح منها، ففي كل فكرة من هذه الرواية دليل قائم بذاته أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون تصويراً لواقع الحال في سفينة نوح (ع)، السفينة التي صُنعت بعين اللّه ووحيه لتصمد أمام هذا الحدث الجلل ولتكون وسيلة نجاة له ولمن معه.

د - "أممٌ ممّن معك"

جاء في تفسير القرطبي للآية (**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**)(هود:٤٨):

[1] – القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص٣٧.

("وعلى أمم ممن معك" قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قوله "وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم" كل كافر إلى يوم القيامة؛ روي ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى (ذرية) أمم ممن معك، و(ذرية) أمم سنمتعهم ... "وأمم سنمتعهم" ارتفع و"أمم" على معنى وتكون أمم ... وأجاز الفراء في غير القراءة وأمما، وتقديره: ونمتّع أمما)[١].

- لقد قدّر المفسّر كلمة (ذريّة) فاستُبدلت (أمم ممن معك) بـ(ذريّة أمم ممن معك)، و(أمم سنمتعهم) بـ(ذريّة أمم سنمتعهم) وذلك ليوافق كلام الله التفسير الذي نقله عن محمد بن كعب، فيكون تفسير القرآن تابعاً لفهم المفسّر أو لأقوال المتقدّمين لا العكس، وبما أن المفسّر كان محكوماً بالاعتقاد السائد بأن الطوفان أهلك البشرية كلها، فكان لابد من تقدير محذوف في الآية ليأتي المعنى متّفقاً مع الفهم السائد، لأن الآية بلا تقدير (ذرية) تثبت أن هناك أمماً نجت من الطوفان ما اضطره لإضافة هذا التقدير وليّ المعنى ليهرب من المعنى الواضح للآية بأن هناك أمماً ممن نجا مع نوح من المؤمنين ومن غيرهم. وكذلك قدّر المفسّر كلمة (تكون) قبل (وأمم سنمتعهم) لتصبح الآية (وتكون أمم سنمتعهم) ليثبّت هذا المعنى مع أنه لو اعتبرها جملة مستأنفة فتصبح (أمم) مبتدأ فتُفهم الآية كما هي لا كما يُراد لها أن تُفهم، أو كما هي في ذهن المفسّر.

- وذكر في موضع آخر: و"من" في قوله: "ممن معك" متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم. و"معك" متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة "لمن" أي ممن استقر معك، أو آمن معك أو ركب معك"[٢]، لاحظ المحذوف الذي قُدّر هنا يفتح الباب مصراعاً لمعاني متباينة لا ندري أيّها يُعدّ تفسيراً للآية وشارحاً للحدث، مع أنّه لو قُدّر - للإعراب فحسب- الضمير (هم) لتكون مبتدأ محذوفاً خبره "معك" والجملة صلة الموصول (مَنْ)، فتصبح الآية (مِن مَنْ -هُم- معك) لما اختلف عليه اثنان ولكن أن

---

[١] - القرطبي، **التفسير**، ج٩، ص٤٨ .

[٢] - القرطبي، **التفسير**، ج٩، ص٤٨ .

يُخصّص التقدير في كلمة تؤدّي إلى معنى مراد مسبقاً أو إلى معاني متباينة فهذا تصرّف في معنى الآية، ولو شاء الله أن يخصص فئة معينة لأتى بالكلمة المناسبة.

نعلم أنّ فهم القرآن يعتمد كثيراً على فهم قواعد اللغة العربية أو بتعبير أدق على فهم قواعده (أي القرآن)، فلسنا مع من يستشهد على صحة استخدام القرآن الكريم لقواعد معينة إذا ما وجد نظيرها في قواعد اللغة العربية، بل العكس هو الصحيح، فقد يستخدم القرآن قاعدة لم يستخدمها العرب من قبل، فتكون قاعدة يتّبعها نحويّو اللغة العربية، ولم تكن مناقشتنا لمن حاول فهم القرآن من خلال تطبيق بعض قواعد اللغة العربية رفضاً لأهمّيتها في فهم القرآن وإنما حاولنا أن نبيّن خطورة التعامل مع القرآن ببعض تعقيدات النحويين واللغويين التي لا تتناسب مع دقّة القرآن في اختيار الألفاظ وبالتالي التوصّل إلى نتائج مغايرة تماماً لمراد الآيات.

تلك أربعة أمثلة فقط من بعض آراء المفسرين تمّ مناقشتها للتعرّف على الأسباب التي أدّت إلى الفهم الخاطئ لمجموعة كبيرة من الآيات القرآنية الكريمة فتبيّن لنا أن معظم هذه الآراء تأثرت بما جاء في التوراة أو ما نُقل عن أهل الكتاب وما تعارف على تسميته بالإسرائيليات، فكانت النتيجة أن فُسّر القرآن متأثّراً بالتزوير اليهودي للحقائق، فكانت تلك نقطة الانحراف الأولى، والسؤال الأهم هو كيف أثّر التزوير اليهودي على فهم المسلمين للقرآن رغم بلاغته، وحسن بيانه، ووضوح عبارته، ودقّة ألفاظه، ورغم أن من توفّر على قراءته وتفسيره وتوضيحه كانوا عرباً أو يتكلّمون العربية ويُتقنون قواعدها، ولقد وُضعت شروط كثيرة على مفسّري القرآن الكريم من معرفة بمختلف علوم اللغة، وعلم أصول الدين والفقه والحديث والرجال وغيرها، ورغم أن المفسرين أنفسهم ما فتئوا يُحذّرون من الوقوع في فخ الإسرائيليات ويضربون الأمثلة على تسلل تلك المفاهيم الخاطئة إلى أفهام المسلمين وهم لا يشعرون، ويُعيبون على من يعتمد على التفسير بالروايات وبينها الروايات التي دسّها اليهود أو غيرهم، ورغم انتباه بعضهم لوجود التناقض والتعارض بين بعض الروايات التي تتناول موضوعاً مشتركاً، ورغم تحذيرهم من وجود أحاديث منسوبة واهية لا تنهض بها حجة، ورغم اعترافهم بأن رسول الله (ص) كثر عليه الكذّابة، ورغم ذمّهم من اقتصر في التفسير بالرواية عن السلف وأبطل حجة العقل، ورغم اعتقادهم الراسخ بأن

حجية الكتاب تثبت بالعقل لا في أقوال الصحابة على اختلافها، ورغم يقينهم أن القرآن لم يدعُ إلى التسليم بالمتناقضات والمتنافيات من الأقوال[1]، رغم كل ذلك إلاّ أننا نجد أن الكثير من المفسرين الأفاضل ابتلوا بما حذّروا منه، فامتلأت كتب التفسير بالأحاديث المتناقضة، والروايات التي تخالف آيات القرآن الكريم، وبالإسرائيليات وهم من حذّرنا من الوقوع في شركها، فربما علموا بوجود الإسرائيليات ولكن فاتهم معرفة الكثير من جزئياتها وربما لم يظنّوا أنها منها، فتولّع بعضهم بالتفاصيل السردية التي وجدوها عند رواة اليهود وقصّاصي المسلمين، وربما لم يكونوا واعين لخطورة القضايا التي يناقشونها فكانوا يُدّققون على مسائل العقائد والأحكام أما الأخبار والسنن وأوجه التفسير التاريخي فلم يكونوا واعين لمدى خطورته، وما حادثة الطوفان إلاّ أنموذج لتأثّر المفسّرين بروايات أهل الكتاب في فهمهم وتفسيرهم لآيات القرآن الكريم، رغم أنه كان المؤمّل أن يكونوا هم المرابطين على ثغور القرآن، هذا هو – برأينا – مكمن الداء، نوجزه في نقطتين:

١. الجزم بصحة الرأي بحيث يُختم على عقل القارئ فيعيقه عن مساءلة ما يقرأ فعلى سبيل المثال نقرأ في تفسير الميزان نقلاً عن صاحب المنار: (ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد المروية عن أهل الكتاب أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريته)[2]. لاحظ الجزم الذي توحي به كلمات من قبيل (لم يكن في الأرض كلها إلاّ)، و(هلكوا كلهم ... ولم يبق ... غير ذرّيته) ولم يُستدل ولو بآية واحدة لإثبات هذه المعلومة، مع أنه يذكر في بداية كلامه أن (ظواهر الآيات تدل)! ولكن يبدو أن هذا الجزم حصل للمفسّر بمعونة القرائن والتقاليد المرويّة عن أهل الكتاب كما يذكر، وكذلك جاء في تفسير الميزان: "فالحق أن ظاهر القرآن الكريم – ظهوراً لا يُنكر- أن الطوفان كان عاماً للأرض، وأن من كان عليها من البشر أُغرقوا جميعاً ولم يقم لهذا

---

(١) – بتصرّف: الطباطبائي، **تفسير الميزان**، ج١، ص٦.

(٢) – الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٠، ص ٢٦٥.

الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور"[1]، مع أننا بتتبعنا آيات القرآن الكريم التي تناولت حادثة الطوفان وجدنا نقيض ذلك. إن أمثال هذا الأسلوب الجازم في كتب التفسير كثير وهو أحد الأسباب التي تقف حائلاً دون مناقشة رأي المفسّر أو مساءلته وبالتالي التصديق عليه وإن كان مخالفاً لمعنى الآية أو للبديهيات العقلية والحقائق العلمية. من الغريب أن يتكرّر هذا الفهم الخاطئ لآيات القرآن الكريم من قبل معظم المفسّرين فأخذ اللاحق عن السابق فلم يختلف رأي من فسّر القرآن قبل عشر سنوات عن رأي من فسّره قبل نصف قرن أو قرون عديدة من الزمان رغم تراكم المعارف وسرعة تطوّر العلوم التي تعين على فهم الآيات فهماً علمياً، واستحداث علومٍ جديدة تساهم في كشف أسرار بعض الآيات القرآنية، وتوفّر أدوات المعرفة وتنوّعها، فكان الحريّ بالمفسّرين المتأخرين الاستعانة بتلك العلوم للتحقق من صحة تفسير من سبقهم، والتحرّر مما قيل في تفسير الآية قبل ذلك. وهذا لا يُبرّئ آحاد أفراد الأمة ولا يُبّرر لها تعطيل عقلها على مدى عقود طويلة والحجر عليه وحرمانه من المناقشة والسؤال والبحث والاستقصاء.

٢. تفسير القرآن على مدى عقود طويلة بلا قواعد ثابته ونظام دقيق يحكمه ويحفظ له خصوصيته ويؤكّد على حاكميته ومرجعيته، أفسح المجال لهيمنة آراء المفسرين على مراد الآيات القرآنية الكريمة، فحُمّلت الآيات الكريمة عقيدة المفسرين المسبقة أو فهمهم المتأثّر بآراء أهل الكتاب فاستُدرجوا إلى الأخذ بالنظرية اليهودية التي ادّعت أن السلالات كلها بدأت من أبناء نوح (ع)، واضطروا أن يحوّروا معاني كل الآيات ذات العلاقة بحيث يصلون إلى تلك النتيجة، فجزموا بأن (قومه) تعني أهله ومن كان يعيش في زمانه، وأن الأمر الإلهي بأن يحمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين دليل على أن الطوفان غطّى الكرة الأرضية كلها، ثم اعتقدوا أن العذاب الأليم الذي حذّر نوح قومه منه كان عذاباً عالمياً قضى على البشرية كلها، وفسّروا معنى (وجعلنا ذريته هم الباقين) بناء على هذا الاعتقاد، وهكذا بسبب اعتقاد خاطئ واحد تدرّجوا في تفسيرات خاطئة واحدة تلو الأخرى إلى أن تبنّوا نظرية مفسّري التوراة في

[1] – الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٠، ص٢٦٦.

أن السلالات كلها بدأت من أبناء نوح (ع)- وهم لا يشعرون - فأصبح الفهم الخاطئ لمعاني آيات القرآن الكريم أداة لتحريك ماكنة التزوير اليهودي، وصرنا نحطب في حبل غيرنا، وهذا هو ما نوّهنا إليه في مقدمة البحث أن الانحراف عن جادة الصواب قيد أنملة يؤدي إلى نتائج كارثية تتطلب منا جهوداً مضنية ومتكاتفة لتغيير الثقافة التي غُرست على مدى سنين طويلة وأصبحت واقعاً معاشاً، فشيوع النظرية السامية وتكريسها في ثقافة الأمم وما ترتبت على ذلك من نتائج هي أحد نتائج الغفلة الطويلة التي عاشها المسلمون بعيداً عن فهم القرآن وإحياء علومه. هذا هو الداء، ولن يكون الدواء إلاّ من حيث بدأ الداء، أي بالرجوع إلى القرآن ليكون الحكم الفصل إذا ما التبست علينا الأمور شريطة أن نقرأه ضمن نظامه وقواعده[١].

ثانياً- مناقشة آراء مفسّري التوراة

انقسم مفسّرو التوراة – يهود ومسيحيّون – إلى فئتين: الفئة الأولى تؤمن بعالمية الطوفان وتحاول جاهدة بكل ما أوتيت من قدرة على الاحتجاج والاستدلال أن تجيب على كل سؤال يُطرح ليُشكّك في عالمية الطوفان، وهذه الفئة انقسمت إلى: مَن يُدافع عن عالمية الطوفان تديّناً وإيماناً بحرفية ما جاء في التوراة (بحسب تفسيره وفهمه لنصوص التوراة)، ومَن يُدافع عن عالميّته لأهداف خاصة ومآرب شتّى ذكرنا بعضها في الفصل الأوّل؛ وأمّا الفئة الثانية فتؤمن بمحدودية الطوفان؛ وهذه بدورها انقسمت إلى من يؤيّد محليّة الطوفان لأنه وجد من البراهين العلمية ما يسقط نظرية عالميته، مع التأكيد على إيمانه بقدسيّة التوراة، ومن يؤكّد على محدوديّته متأثّرا بعقيدة النشوء والتطوّر الداروينية فيرفض فكرة عالمية الطوفان لأنها تتضارب مع ما تبنّى من عقائد، وقد يدخل ضمن هؤلاء بعض اللادينيين – كما يطلقون على أنفسهم – الذين يكذّبون حادثة الطوفان وغيرها ممّا جاء في الكتب السماوية.

سنقتصر على مناقشة بعض الآراء التي تحاول إثبات عالمية الطوفان لنجد مدى تأثير العقيدة على طريقة التفكير، ولنثبت عدم صحة هذه النظرية وذلك بالاستناد

---

[١] – راجع بحث: **مفاتح القرآن والعقل**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

إلى نصوص التوراة وإلى آراء أهل الكتاب الذين يرفضون هذه النظرية، ولن نطيل في هذا المجال لأن الفريقين ممن يؤمن بعالميته ومن يؤكّد على محدوديته من علماء الغرب أشبعوا الموضوع بحثاً وتحقيقاً وسنكتفي بما يفي بغرض هذا البحث وإشكاليته.

لقد شغلت فكرة عالمية الطوفان بعض علماء ومفسّري أهل الكتاب منذ زمن بعيد فطرأت عليهم مجموعة كبيرة من الأسئلة مثل: كيف تُعلَّل الكميات الهائلة من الماء التي استطاعت أن تغمر الكرة الأرضية بأسرها حتى أعلى قمة جبل فيها؟ وماذا كان أمر الماء بعد ما انتهى الطوفان؟ وكيف استطاع نوح (ع) أن يحمل معه من جميع أصناف الحيوانات؟ وكيف يمكن التوفيق بين الأدلة العلمية التي أثبتت أن الأرض تشكّلت منذ مليارات السنوات وبين الاعتقاد بأن عمر الأرض لا يزيد عن ستة آلاف سنة (أي بعد حادثة الطوفان التي يؤرّخ لها حوالي ٣٠٠٠ ق.م.)؟ وما هو ردّ معتنقي نظرية عالميّة الطوفان على الأدلّة الآثارية التي تمّ اكتشافها وكلّها تثبت أن هناك الكثير من الحضارات التي بدأت قبل الطوفان ولم تُدمّر بفعل الطوفان العالمي (حسب ادّعائهم) مثل حضارة مصر وادي النيل التي يُقدّر لها أكثر من٦٠٠٠ سنة، وحضارة السومريين التي ناهزت ٥٠٠٠ سنة، وغيرها من أسئلة تزيد وتصبح أكثر دقّة ومنطقيّة كلما تقدّم العلم وتنوّعت مجالاته.

يستند بعض مفسّري التوراة على أدلة من التوراة ليثبتوا عالميّة الطوفان، نذكر منها على سبيل المثال:

١- إنّ المياه غمرت الأرض حتى أعلى جبل فيها.

٢- إنّ جميع من في الأرض – عدا من كان في السفينة – أغُرق.

٣- إنّ البقاء في السفينة أكثر من سنة دليل على أنّ الطوفان كان عالمياً.

٤- إنّ حجم السفينة وطريقة بنائها كان لمواجهة حدث عالمي لا مجرّد طوفان محلّي.

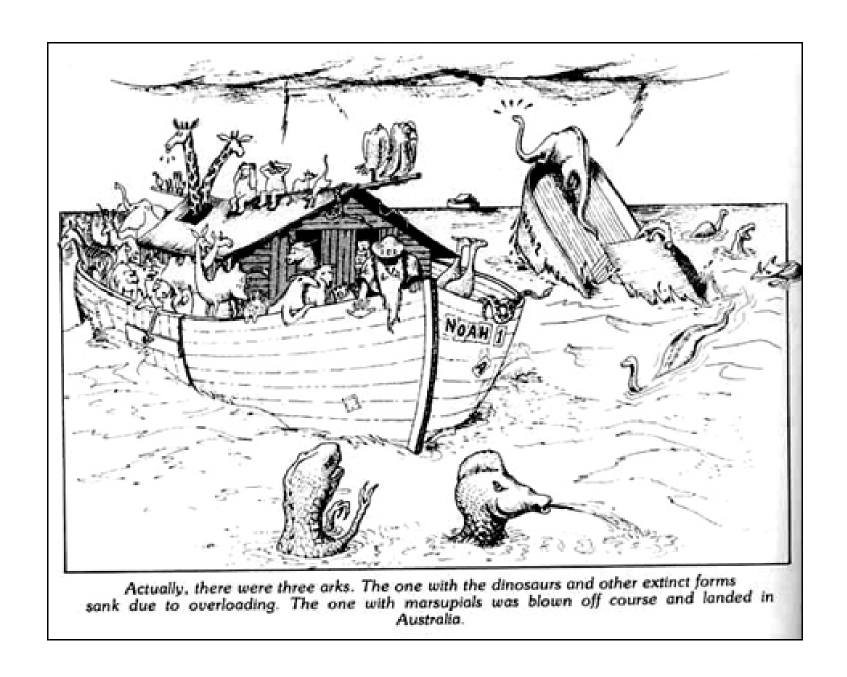
٥- الحيوانات والطيور والبهائم والدواب التي أُمر بحملها لاستبقاء نسلها دليل آخر على أنّ الطوفان شمل كوكب الأرض وأفنى من عليها.

وغيرها من أدلّة تطرّقنا إليها في الفصل الأول والثاني وأثبتنا أن التوراة نفسها لا تصرّح بعالمية الطوفان وإنما فُسّرت بعض ألفاظها وفُهمت من قبل البعض ليثبتوا ذلك، فذكرنا أن (حرار) العبرية(!) صارت (تلال) بالإنجليزية، ثم صارت (الجبال الشامخة) بالعربية، وأثبتنا بأدلة من التوراة أن لفظ (كلّ الأرض) أو (كلّ وجه الأرض) لا يعني كوكب الأرض وإنّما المنطقة التي حدث فيها الطوفان، ولو شئنا أن نناقش ما قاله مفسّرو التوراة أو العلماء الذين يتبنّون نظرية عالمية الطوفان لاحتجنا إلى بحث مطوّل للردّ على كل الافتراضات غير العلمية التي افترضوها، ولكن سنقف مع افتراض واحد فقط لنُبيّن أثر هيمنة الاعتقاد على سلامة تفكير الإنسان، وكيف يُضحّى بعشرات الحقائق العلمية لأجل إثبات عقيدة مدخولة واحدة، وكيف تُستغل بعض النظريات الصحيحة للتدليل على فهم محرّف.

من أكثر الأدلة التي يستند عليها معتنقو نظرية عالميّة الطوفان هي: أن نوحاً حمل معه من جميع الحيوانات الموجودة على وجه الأرض لاستبقاء نسلها، وقد ذُكر ذلك بصيغ مختلفة توحي بأنّ كلّ أنواع الحيوانات التي كانت موجودة في أنحاء المعمورة ركبت مع نوح في السفينة، فلكي يثبتوا ذلك اضطروا أن يفترضوا أنّه حمل معه زوجين من الديناصورات وفي محاولة منهم لكي يكون طرحهم منطقياً قالوا أنّه اختار الديناصورات ذوات الحجم الصغير لأنها تشغل حيزاً أصغر وتحتاج إلى كمية أقل من الطعام (!) ثم لكي لا يُسألوا عن طريقة جلبهم إلى السفينة بعد بدء الطوفان ادّعوا أن الله باشر هذه المهمة بنفسه فاختار من الديناصورات ذات الحجم الأصغر لا من جميع أصنافها (!!)، وحاولوا أن يثبتوا تزامن الإنسان مع الديناصور (مع العلم أن الديناصور وجد قبل الإنسان بـ٢٠٠ مليون سنة أي قبل تواجد الإنسان على كوكب الأرض بملايين السنين)، ثم راح بعضهم يحسب عدد الحيوانات البرية والبحرية والطيور والحشرات والفيروسات والبكتيريا التي كان يجب على نوح أن يحملها معه في السفينة فاكتشفوا أنها لا تقلّ عن مليون صنف، فاضطرّوا أن يعيدوا تصنيفها بحيث يستبعدوا منها الحيوانات البحرية بأنواعها المختلفة وبعض البكتيريا والفيروسات

فتبقّى ٣٥٠٠٠ صنف، وهكذا توغّلوا في عمليات حسابية معقّدة وحسبوا مساحة السفينة فوجدوا أنّه لو حمل معه ٥٠٠٠٠ صنف من الحيوانات فسيشغل ٣٧٪ فقط من مساحتها والباقي سيكون كافياً لحمل الأطعمة وغير ذلك، وأما طريقة مجيء هذا الكم الهائل من الحيوانات إلى سفينة نوح حين بدأ الطوفان فبغريزة الإحساس بالخطر الموجودة لدى الحيوانات (!) فقط تصوّر إقدام ملايين الحيوانات من القارّات السبع إلى موقع سفينة نوح التي لا ندري كيف دارت بها وكيف عبرت البحار والقفار بسرعة الحلزون والكوالا والحرباء أم بسرعة الفهود والغزلان، ثمّ حين أتت أفيال أفريقيا وأسود الهند وكناغر أستراليا ودببة القطب ولاما البيرو وآلاف الأصناف غيرها من الشرق والغرب رضيت بالقسمة والنصيب بأن يأخذ نوح فقط زوجين منها، لو حصل هذا لكانت معجزته أكثر بكثير من الطوفان نفسه، بل أعظم من يوم المحشر. وبقى سؤال لم نجد له إجابة رغم ما كُتب في هذا الشأن وهو كيف أستطاع نوح أن يفرز من هذا الكم الهائل من الحيوانات والبهائم والطيور والحشرات زوجين اثنين (حسب ما أُمر) وكم كان سيستغرق من الوقت لو أراد أن يفعل، وما هي الآلية التي استخدمها لكي يميّز بين الذكر والأنثى منها، ولكي يجيبوا عن السؤال الطبيعي بعد هذا: من كان المسئول عن الاعتناء بكل تلك الحيوانات مدّة بقائهم في السفينة؟ مع العلم أنه لم يأخذ معه إلاّ زوجته وأبناءه الثلاثة وزوجاتهم، فكيف استطاع ثمانية أشخاص الاعتناء بالديناصورات والأسود والسباع والحمير والبغال والطيور والحشرات وغيرها (!!) فتخيّلوا حالة غريبة جداً ليمكنهم الاستمرار في ترقيع الصورة المشوّهة التي افترضوها فقالوا إن معظم الحيوانات التي كانت في السفينة بقيت في حالة سبات (!!) طوال فترة بقاء نوح (ع) في السفينة (٣٧١ يوماً) وادّعوا أن العلم أثبت وجود هذه الحالة لدى معظم الحيوانات، وبالتالي فإن العناية بها أصبحت ممكنة من قبل الأشخاص الثمانية الذين كانوا على متن السفينة. سوف نترك لخيال القارئ أن يحلّق بعيداً مع كلّ احتمال يمكن أن يرد على ذهنه إذا ما شاء أن يعتقد أنّ نوحاً (ع) حمل معه في السفينة من كلّ الحيوانات الموجودة على كوكب الأرض، وقد يقف خياله عند حدّ ولن يقف خيال من وهبوا أنفسهم من معتنقي نظرية التوراة

للإجابة على كلّ سؤال يخطر ببال أي إنسان حتى وإن كان فيه استهجان بعقل القارئ وتطاول على العلم وافتراء على الحقائق، المهم أن لا يتنازلوا عن فكرة عالميّة الطوفان.



Actually, there were three arks. The one with the dinosaurs and other extinct forms sank due to overloading. The one with marsupials was blown off course and landed in Australia.

كاريكاتير يعبّر عن الخيال الذي تحكّم في عقلية من اعتقد بعالمية الطوفان
(الصورة: ١٨)

هناك الكثير من الحقائق العلمية التي تدحض هذه النظرية نأمل من المتخصصين في المجالات المختلفة أن يتوفّروا على دراسة حجج من يدّعي عالمية الطوفان ويردّوا عليها كما فعل علماء الغرب فناقشوا حادثة الطوفان نقاشاً علمياً رصيناً وقبلوا ما يقتنع به العقل ويصدّق عليه العلم ورفضوا ما لا يقبله العقل وتكّذبه النظريات العلمية، وقبل أن نصل إلى خاتمة البحث سنسوق بعض الأدلة التي تثبت عدم شمولية الطوفان:

- يعتقد بعض مفسّري التوراة أن الأرض كانت قبل الطوفان مستوية بلا جبال ولا بحار، وهذا الرأي يناقض نص التوراة -الذي يحاول أن يفسّره- لأن التوراة نفسها تقول: (ـ **فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل سماء**)، كما أنّ القرآن يؤكّد ذلك في قول ابن نوح : (**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**)(هود:٤٣) أي أنّه كانت في منطقة الطوفان جبال يطمع ابنه أن يلجأ إليها فتعصمه من الغرق، وقد أثبت علم الجيولوجيا أن الجبال بدأت منذ مليارات السنين والتراث الصحيح والقرآن أثبتا ذلك كما في قوله تعالى : (**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**)(النحل: ١٥).

- إن جبال أرارات – التي يدّعي اليهود أن السفينة استقرت عليها – من الجبال البركانية التي تتكون بفعل إلقاء الأرض ما في باطنها من حمم بركانية وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها لتكون تلك الجبال الشاهقة حتى تصل ارتفاعاتها إلى آلاف الأمتار فوق مستوى سطح البحر ومعظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين ٢٠-٣٠ مليون سنة، وقد يصل بعضها لأكثر من ١٠٠ مليون سنة، فمتى تكوّن هذا الجبل الذي استقرّت عليه السفينة؟ مع العلم أنّ ارتفاعه يبلغ ٥،١٠٠ متراً.

- جاء في كتاب (المواعظ والاعتبار)[١]: "الفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس ... ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يجاوز عقبة حلوان ولا بلغ إلى ممالك المشرق ..."، وقال ابن خلدون في المجلد الثاني من تاريخه: "واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان"[٢]، مع العلم أنّ موقعهم الجغرافي لا يبعد كثيراً عن موقع الحدث بناء على فرضية أنّه كان في الجزيرة العربية، أمّا على رأي من يقول أنّه كان في العراق فهذا يؤكّد فرضيّة محدودية الطوفان إذ كيف يعمّ الطوفان الأرض كلها ولا يسمع به أقرب جيران المنطقة المنكوبة.

---

(١) - المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج١، ص٣٢٥.

(٢) - ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٦.

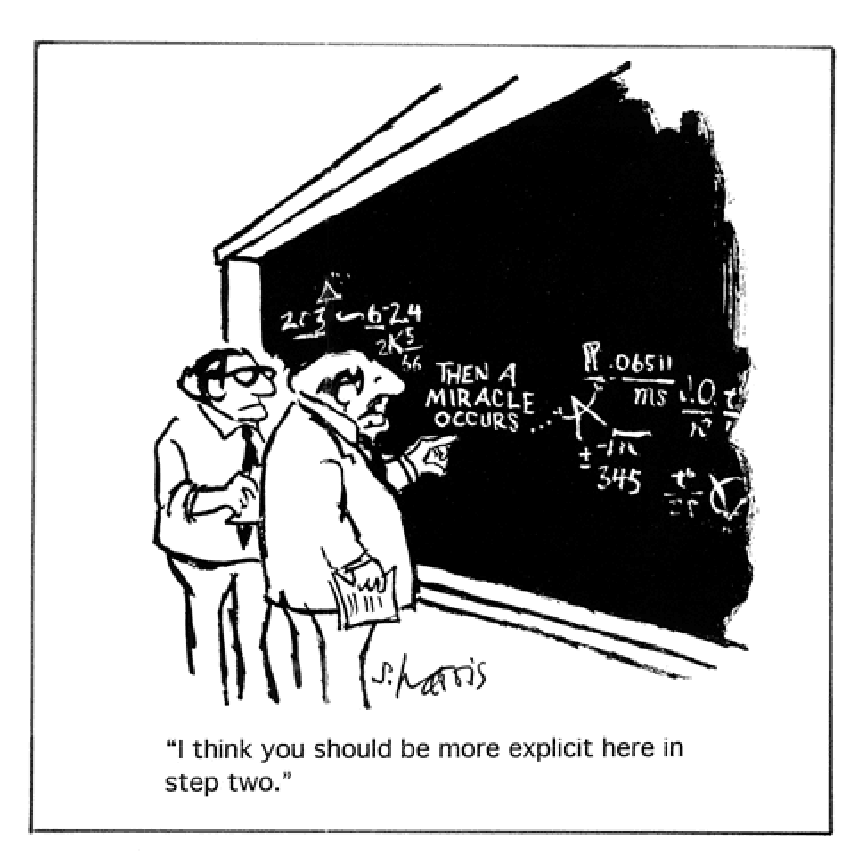
- نقرأ في كتب التاريخ عمّا يُسمّى ثبت أو جداول الملوك السومرية وقد عنونت بالسومرية بمصطلح "الملوكية" (نام-لوگال)، وهي جداول تتضمّن أسماء السلالات وحكّامها وملوكها مع عدد سنيها وسني كل ملك فيها، والذي يهمّنا من أمر هذه الجداول فيما يتعلّق ببحثنا أن هذه الجداول تقسّم تاريخ البلاد أو بالأحرى تاريخ العالم إلى حقبتين متميزتين: ما قبل الطوفان، وما بعد الطوفان ثم تذكر أسماء ملوك ما قبل الطوفان، وملوك ما بعد الطوفان، فإذا أهلك الطوفان البشرية كلّها فلن يكون هناك حاجة لملوك، ومن سيحكمون؟ ولماذا لم يكونوا أبناء نوح (ع) ماداموا هم الباقين وهم السادة، ولماذا لم يأتِ ذكر أحدهم في تلك الجداول؟ ولماذا لمْ يُنَصّ أنّ آخر ملوك ما قبل الطوفان أهلكوا بالطوفان، بل جعلتهم صالحين؟! فهذا دليل على أنّ الطوفان لم يكن عالمياً، ولم يكن في العراق.

- تحدّد مدوّنة التوراة تاريخ الطوفان في السنة الستمائة من عمر نوح (ع)، كما تعطي إشارات عن موقع نوح الزمني بالنسبة لآدم (ع) وإبراهيم (ع) من خلال قائمة الأنساب المتناثرة في سفر التكوين والتي تقول بأنّ نوحاً قد ولد بعد آدم بحوالي ١٠٥٦ سنة أي أنّ الطوفان وقع ١٦٥٦ سنة بعد آدم النبي، وقبل مولد إبراهيم (ع) بـ٢٩٢ سنة، فإذا قبلنا أنّ الطوفان كان عالمياً وقضى على البشرية كلّها ما عدا ثمانية أشخاص- حسب نظرية المفسّرين – فهذا يعني أنّ الإنسانيّة أعادت تكوين نفسها بشرياً وحضارياً في فترة وجيزة جدّاً وهذا ما لا تصدّق عليه الآثار ولا يقبله المنطق والعقل.

- ومزيد من الأسئلة تُطرح على معتنقي نظرية عالميّة الطوفان مثل: ما هو تفسيرهم لوجود طبقات من (varves) وهي أنواع من الصخور التي تتكوّن ببطء بحيث يمكن التعرّف من خلالها على عمر الأرض وقد وجدت بعض أنواع من هذه الصخور التي تحتوي على مئات الآلاف من هذه الطبقات ما يعني أنّ عمر الأرض أكثر بكثير مما يعتقده معتنقو عالميّة الطوفان، ونفس الكلام يُقال بشأن كميات الفحم المنتشرة في مناطق مختلفة من أنحاء العالم، وحفريات الحيوانات التي لا يمكن أن تكون نتاج الجيل الذي دُفن من بعد الطوفان فقط فهي لكثرتها لو شاء لها أن تخرج من قبورها لغطّت سطح كوكب الأرض بسمك نصف متر!! وكذلك بالنسبة

لتكوّن الفحم والصخور المرجانية والترسبات الطباشيرية التي تحتاج إلى ملايين السنين لكي تتشكّل، فمتى تكوّن كل هذا إذا لم يتجاوز عمر الأرض أكثر من ٦٠٠٠ سنة على أكثر تقدير بحسب عالمية الطوفان.

إن ما يُقلق في القضايا العقائدية هو سطوتها على معتنقيها بحيث تصدّق عقولهم كل ما يتّفق مع اعتقادهم ويصبحون أسراء هذا المعتقد وهم لا يشعرون، وما يزيد الطين بلّة إذا كان المتحدّث في هذه القضايا هم من تلبّسوا بلباس العلم وخاصة إذا ما طرحوا هذه الأفكار بأسلوب يوحي بالعلميّة وذلك بتدعيم آرائهم بنظريات علميّة صحيحة ويقينية وأرقام دقيقة، ثم تمّ تحويرها لصالح المعتقد، فعلى سبيل المثال القول بأن الحيوانات تستشعر الخطر قبل حدوث الكوارث الطبيعية، معلومة صحيحة ولكن استخدامها هنا لإثبات أنّ الحيوانات التي كانت منتشرة على وجه الأرض كلها توجّهت نحو سفينة نوح عندما استشعرت خطر الطوفان هو الخطير لأنّ القارئ البسيط لا يمكنه أن يميّز بين صحة النظرية وسوء استغلال الكاتب لها فينبهر أمام الأسلوب المتلبّس بالعلميّة ويصدّق دون نقاش فيتبنّى الفكرة ويدافع عنها وينشرها وهكذا دواليك حتى تنتشر الأفكار الخاطئة بلا تمحيص فتترسخ في ثقافة الناس وتصبح جزءاً من عقائدهم المقدّسة بحيث لو اقترب أحد منها لمناقشتها أو التشكيك فيها لعُدّ من الخارجين عن الدين.



"I think you should be more explicit here in step two."

هكذا يتندّر أصحاب نظرية التطور على من يؤمنون بعالمية الطوفان

(الصورة: ١٩)

الخاتمة

قرأنا حادثة الطوفان من مصادرها التراثية فوجدنا أنّها تتشابه في الكثير من التفاصيل وتتّفق على أنّ الطوفان كان محلّياً، وأنّه كان في غرب شبه الجزيرة العربية حيث موطن قوم نوح (ع)، وقد حدث في حوالي ٣٠٠٠ ق.م. نتيجة لارتفاع منسوب المياه بسبب ذوبان الجليد الذي أدّى إلى زيادة الضغط على المياه الجوفية المخزونة تحت الدرع العربي، فانفجرت فوهات جبال السراة البركانية بماء منهمر، وتفجّرت الأرض عيوناً فأغرق قسماً كبيراً من تلك المنطقة، وقضى على الهمج والخطاة فيها، ونجا نوح (ع) ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين.

اتّفقت المصادر على موقع الطوفان، وكيفيته، وأسبابه، وغيرها من تفاصيل، بينما شذّت مدوّنات التوراة بتفرّدها بإضافة جيء بها في نهاية الحادثة فنسبوا إلى النبي نوح (ع) السكر والتعرّي ولعن كنعان ظلماً ليحقّقوا أغراضاً خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثمّ استُغلّت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييّز العنصري والتأسيس للنظرية الساميّة، فأدّعى اليهود - الذين يرجع نسب أكثر من ٩٠٪ منهم إلى الخزر- أنّهم هم (الساميّون) رغم أن عشيرة بني إسرائيل - التي يرجع نسبها إلى سام بن نوح - لا تزيد على واحد من ألف من منتسبي الساميّة!!

هذا ملخّص ما استُنتج من قراءة النصوص، ولكن ما أدهشنا حقّاً هو التناقض بين ما جاء في مصادر التراث بشأن محدودية الطوفان وبين الاعتقاد السائد في أوساط الأمّة بعالميّة الطوفان على اختلاف مستوياتهم العلميّة وثقافتهم وأديانهم، فكان لابدّ من البحث لمعرفة الأسباب التي أدّت إلى هذا الاعتقاد رغم لا معقوليته فتبيّن أن ما أوهم عموم الناس بعالمية الطوفان هو ما ذهب إليه مفسّرو التوراة أوّلاً، ومن ثّمّ مَنْ تأثّر بهم وبالإسرائيليات وبمرويّات أهل الكتاب من مفسّري القرآن الكريم ثانياً.

بالسير في تفاصيل حادثة الطوفان وصلنا إلى نهاية المطاف في بحث "طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام" الذي كشف لنا البون الشاسع بين حقيقة الحادثة وما نُسج حولها من أوهام بدأت بالتزوير اليهودي ثم استكملت حلقاتها بتفسير القرآن متأثّرين بآراء أهل الكتاب، وما تلك إلاّ خطوة نحو قراءة للتاريخ قراءة واعية، متجرّدة، ناقدة، ومتحرّرة من سطوة التزوير اليهودي أوّلاً، ومما علق بأذهاننا من أفهام سابقة لتراثنا وقرآننا ثانياً. قراءة التاريخ لغربلته مما دُسّ فيه من زيف ضرورة لا غنى لنا عنها لكي يُعاد الحق إلى نصابه، ولكيلا نقول كما قال المتقاعسون الضعفاء المتغافلون "التاريخ يعيد نفسه"، فالتاريخ يُعيد نفسه لمن لا يتعلّم منه، ولمن يكرّر أخطاءه، ولمن لا يعي واقعه. إن مقولة "التاريخ يعيد نفسه" ليست "سُنّة"، ولكنها أصبحت بمثابة "السُنّة" في ثقافة الأمة لاطّرادها في تاريخها، وأصبح كل من يكرّر أخطاءه السابقة جهلاً يردّد "التاريخ يعيد نفسه" فيلقي باللائمة على التاريخ ليريح عقله ويستريح. التاريخ لا يُعيد نفسه إلاّ لمن لا يأخذ العبرة منه، ولكن للتاريخ سُنن صارمة، لا تُحابي، وهي سارية في الحضارة الإنسانية كما تسري في قوانين المادة والكون، فهم هذه السنن والتعامل معها بحكمة هي ما ندعو أن تجد مكانها في ثقافة الأمة، لمعرفة كيفية التعامل معها وتطويعها لخدمة قضاياها المصيرية.

(**فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)(النحل: ٣٦) سرنا مع النبي نوح (ع) بطل حادثة الطوفان، ومنقذ السلالة الإنسانية من الإنسلاخ والمسخ، فتعلّمنا أنّ الإنسانية تمرّ بمنعطفات خطيرة إذا لم تجد من الرجال من يتصدّى لها تنتكس، هي لحظة انتكاس الحضارة وحدها التي أفرزت مخلّصاً وضع روحه على أكفّه منادياً: ربِّ (**أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**)(القمر: ١٠).. فجاءه ردّ النداء: (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ**)(القمر: ١١ - ١٤) لحظة انتكاس الحضارة قبل خمسة آلاف عام أفرزت منقذاً كنوح (ع)، واليوم تمرّ الإنسانية بانتكاسة كتلك أو أردى منها، فهل آن للأمّة أن تجود بمن يجود بنفسه لأجل أن ينتشلها من رداها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - العربية والمترجمة:

١- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٢- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ضبط صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر، ١٤١٥.

٣- ابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن)، زاد المسير في علم التفسير، ط١، بيروت دار الفكر، ١٤٠٧.

٤- ابن حنبل (أبي عبد الله أحمد بن محمد)، المسند، ط١ [بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال]، بيروت: دار الفكر.

٥- ابن خلدون (عبدالرحمن) مقدمة ابن خلدون، ط٤، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٦- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الهاشمي)، الطبقات الكبرى/ تحقيق زياد محمد منصور، ط٢، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨.

٧- ابن القيسراني (محمد بن طاهر)، تذكرة الحفاظ، تحقيق حمدي عبد المجيد، ط١، الرياض: دار الصميعي، ١٤٥١.

٨- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ.

٩- البخاري (محمد بن اسماعيل)، صحيح البخاري، [طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستنبول – ١٤٠١]، بيروت: دار الفكر.

١٠- باقر (طه)، ملحمة كلكامش، ط٥، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ .

١١- بييروسي، مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب/ ترجمة فريد جحا، ط٣، دمشق: دار البشائر، ١٩٩٦ .

١٢- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري.

١٣- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، التوحيد .. عقيدة الأمّة منذ آدم.

١٤- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، جنة آدم.

١٥- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الخلق الأول - كما بدأكم تعودون.

١٦- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، اللِّسان العربي - بُعد فطري وارتباط كوني.

١٧- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، مفاتح القرآن والعقل.

١٨- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعَصى آدمُ الحقيقةُ - دونَ قناعٍ.

١٩- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، اليهود وتوراة الكهنة.

٢٠- الخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن علي)، تاريخ بغداد/ تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ .

٢١- داوود (أحمد)، تاريخ سوريا الحضاري القديم-١ المركز، ط٢، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٩٩٧ .

٢٢- داوود (أحمد)، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، ط١، دمشق: دار المستقبل، ١٩٩١.

٢٣- الراغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن/ تحقيق صفوان داودي، ط١، دمشق: دار القلم والدار الشامية، ١٤١٢.

٢٤- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، الفايق في غريب الحديث، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧.

٢٥- الشيرازي (ناصر مكارم)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، بيروت: مؤسسة البعثة، ١٤١٣/ ١٩٩٢.

٢٦- الطبرسي (أبي محمد علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥.

٢٧- الطباطبائي (السيد محمد حسين)، الميزان في تفسير القرآن، ط٢، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٢/ ١٩٧٢.

٢٨- الطوسي (أبي جعفر محمد بن الحسن)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد العاملي، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩.

٢٩- عبد بن حميد (أبي محمد)، المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق السيد صبحي السامرائي، محمود الصعيدي، ط١، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٨/ ١٩٩٨.

٣٠- علي (فاضل عبدالواحد)، الطوفان في المراجع السماوية، ط١، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

٣١- القرطبي (محمد بن أبي بكر بن فرج)، تفسير القرطبي/ تحقيق أحمد البردوني، ط٢، القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢.

٣٢- القرطبي (محمد بن أبي بكر بن فرج)، الجامع لأحكام القرآن، برنامج المعجم.

٣٣- قاشا (سهيل)، التوراة البابلية، ط١، بيروت: الفرات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.

٣٤- كريمر (صامويل نوح)، من ألواح سومر/ ترجمة طه باقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي.

٣٥- المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي)، بحار الأنوار، ط٢، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٣٦- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب/ تحقيق شارل بلا، ط١، الناشر: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٩.

٣٧- المقريزي (أحمد بن علي)، المواعظ والاعتبار.

٣٨- المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٦، بيروت: دار الشروق.

ثانياً المصادر والمراجع الأجنبية:

1-Strong's Hebrew and Greek Dictionaries .

ثالثاً – مواقع إلكترونية (الانترنيت):

1-http://www.alwatan-news.com/data.

2-http://www.aramnahraraim.org/Afrem_eus_tert_Arabic.htm

3-http://www.islamonline.net/Arabic/politics/2004/11/law.doc

4 - http://www.jesustoday.org/ketab/takwin/dars1-5takwin.htm.

5 - http://www.khayma.com/albayan/judi.html.

6- http://www.mythome.org/gilgamesh.11html.

رابعاً – أقراص إلكترونية:

أ - القرآن:

١ – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١.

ب - التوراة:

1- Rick Meyers,E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004, http://www.e-sword.net

2- Online Bible Millennium Edition. Version: 1.11.90, Mar 28, 2002, http://www.onlinebible.net . /

ج – مصادر ومراجع أخرى:

١ – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصدار الثالث، قم المقدسة، ١٤٢١هـ.

٢ – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفية للسنة النبوية**،الإصدار ١,٥ ، الأردن (عمان): مركز التراث، ١٤١٩/ ١٩٩٩ .

٣- مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **تاريخ دمشق لأبن عساكر**،الإصدار ١,٥ ، الأردن (عمان): مركز التراث.

فهرست المحتويات

سلسلة عندما نطق السراة

١. مفاتح القرآن والعقل.

٢. التوحيد ... عقيدة الأمة منذ آدم.

٣. الأسطورة ... توثيق حضاري.

٤. الخلق الأول ... كما بدأكم تعودون.

٥. وعصى آدم ... الحقيقة دون قناع.

٦. بين آدمين ... آدم الإنسان وآدم الرسول.

٧. نداء السراة ... اختطاف جغرافيا الأنبياء.

٨. طوفان نوح ... بين الحقيقة والأوهام.

٩. مسخ الصورة ... سرقة وتحريف تراث الأمة.

١٠. اللسان العربي ... بعد فطري وارتباط كوني.

١١. جنة آدم ... تحت أقدام السراة.

١٢. ليلة القدر ... عيد الخليقة.

١٣. اليهود وتوراة الكهنة.

طوفان نوح

بين الحقيقة والأوهام

لقد حذفت بعض المؤسسات العلمية والتربوية الغربية قصة طوفان نوح (ع) من مناهجها التعليمية بحجة أنها لا تتّفق مع النظريات العلمية الحديثة، واتّخذ بعض المغرضين من غير المتديّنين هذا الحدث التاريخي العظيم مادّة للتندّر والاستهزاء بسبب ما قاله رجال الدين والمفسّرون من أعاجيب لا يقبلها المنطق ولا العقل السليم في محاولتهم لإثبات عالمية الطوفان، واستثمر المستنفعون من اليهود هذه القضية العقائدية ليبتدعوا النظرية السامية ويرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح (ع) ويؤسسوا لنظرية التمييّز العنصري البغيض.

يناقش هذا الكتاب قضية طوفان نوح (ع) بالرجوع إلى ثلاثة مصادر تراثية تناولت هذا الحدث بتفاصيله الدقيقة لا ليُدحض ادّعاء عالمية الطوفان فحسب بل ليكشف التزوير اليهودي والأغراض والنوايا السيئة التي من أجله استُغلّت هذه الحادثة، ثم ليضع اليد على موضع الدّاء في ثقافة هذه الأمّة التي قرأت تاريخها الذي كتبه لها الغرب بلا مساءلة أو تمحيص، وقرأت قرآنها دهراً من خلال ما اصطلح عليه بالإسرائيليات فصار أمرها عليها غمّة، وأخيراً ليثبت أن الدين لا يتنافى مع العلم بل يثريه ويعاضده.

يقدّم هذا الكتاب قراءة جديدة في قصة طوفان نوح من خلال قراءة ثانية لآيات القرآن الكريم ومخالفاً لمعظم ما جاء في كتب التفسير فأثبت محدودية الحدث، وحدّد موقع حدوثه، وأسبابه، وكيفيته، وفتح الباب لمزيد من البحث والاستقصاء في الأدلة العلمية التي تُبدّد هذا الوهم.

